صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العبّاسي

تأليف
ميخائيل عوّاد

دار الرشيد
للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام - الجمهورية العراقية

١٩٨١

سلسلة دراسات
(٢٧٩)

صور مشرقة

من حضارة بغداد في العصر العبّاسي

تأليف

ميخائيل عوّاد

تمهيد

أَجْمع المؤرّخون، والرحّالة، والبلدانيون، وكُتّاب التراجم، وغيرهم من المؤلّفين القُدامى، على القول إن بغداد: أُمّ الدنيا، وسيّدة البلاد، وجنّة الأرض، ومجمع المحاسن والطيّبات، ومعدن الظرائف واللطائف. ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها: سعةً وكبراً وعمارة، وكثرة مياه، وصحّة هواء. ولأنّه سَكَنها مِن أصناف الناس وأهل الأمصار والكُوَر. وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم. فليس مِن أهل بلدٍ إلاّ ولهم فيها محلّة ومَتْجَر. فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا. ثم يجري في حافتَيْها النهران الأعظمان: دجلة والفرات، فيأتيها التجارات والمِيَر برّاً وبحراً بأيْسَر السعي، حتّى تكامل بها كلّ مَتْجَر يُحْمَل مِن المشرق والمغرب. حتّى كأنّما سِيقت إليها خيرات الأرض، وجُمعت فيها ذخائر الدنيا، وتكاملت بها بركات العالَم.[١]

وبغداد الى كلّ ذلك، تقع في الإقليم الرابع، وهو الإقليم الأوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول. فطاب الثّرَى، وعَذُب الماء، وزكت الأشجار، وطابت الثمار، وأخصبت الزروع. وباعتدال الهواء، وطيب الثّرَى، وعذوبة الماء، حسنت أخلاق أهلها، ونضرت وجوههم، وانفتقت أذهانهم، حتى فضلوا الناس في العِلْم والفهم والأدب والنظر، والتجارات، والصناعات، والمكاسب، والحذق بكلّ مناظرة، وإحكام كلّ مهنة، واتقان كلّ صناعة.[٢]

---

(١) و(٢) أنظر: البلدان: لليعقوبي (ص٢٣٣ - ٢٣٤)، فضائل بغداد العراق (ص٤ - ٦)، مقدّمة تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي (ص٧٦ - ٧٧)، معجم البلدان (١: ٦٨٠ - ٦٨١).

فليت شعري، بلدٌ تلك صفاته وخيراته، وهذه محاسنه وفضائله، ألاَ يستحقّ أن يُكَرَّم على مرّ الأزمان والدهور؟

* * *

كنّا خلال السنوات الماضيات، قد نشرنا - في مواطن مختلفة - جمهرة مِن الأبحاث، تناولنا فيها صُوَراً مِن الحضارة العربية ونحو ذلك. وفيها شيء كثير يتّصل بحضارة بغداد دار السلام.

فرأينا، أن نعود اليوم الى تلكم الأبحاث، ونستخرج منها ما هو بغداديّ أصيل. فنجدِّد دراسته، ونعيد تحقيقه، ونشفعه بذِكر مصادره ومراجعه. فاجتمع لنا مِن ذلك باقة مستطابة، تجمع صُوَراً مُشْرِقة مِن حضارة هذه المدينة العظيمة، في ميادين الفنون والعلوم والمعارف. نضعها بين أيدي القرّاء الكرام.

وقد اتخذنا الرموز الآتية، التماساً للإختصار

ت	توفيّ، المتوفيَّ سنة
ج	جزء، مجلَّد
ح	حاشية
د	دكتور
س	سطر
ص	صفحة
ط	طبعة (ط ١ = طبعة أولى، ط ٢ = طبعة ثانية، الخ)
ع	عدد
م	سنة ميلادية
مط، المط	مطبعة، المطبعة
هـ	سنة هجرية

ومن الله العون والتوفيق.

ميخائيل عوَّاد

بغداد ٢٠ - ٩ - ١٩٨٠

هندسة البناء

حفلت بغداد وغيرها مِن أمّهات البلدان الإسلامية، أيّام ازدهار الحضارة العربية فيها، بعددٍ كبير مِن القصور الشامخة، والدُور الفخمة، والعمارات الفسيحة، ظلَّ أمرها أحدوثة الزمان.

وكان المعتصم[1] باللّه الخليفة العبّاسي، يقول: انّ في العمارة أموراً محمودة، أوّلها: عمران الأراضي التي يحيا بها العالَم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتّسع المعاش. وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدتَ موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم، جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً، فلا تؤامرني به.[2]

وفي تلك الأيام، انتشر طراز بناء عظيم الشأن، عُرِف بـ «الحِيرِيّ والكُمَّيْن»[3] و«الحِيرِيّ» منسوب الى «الحيرة» المدينة العربية المشهورة. وكان أوّل مَن أحْدَث هذا الطِراز مِن خلفاء بني العبّاس: المتوكّل[4] على

---

(١) خلافته (٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ - ٨٤٢م).

(٢) مروج الذهب (٧: ١٠٤).

(٣) «الحِيرِيّ بِكُمَّيْن (البِدلّى والسِّدير)». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلّة «الثقافة» ٤ [القاهرة ١٣ و٢٠ و٢٧ أكتوبر ١٩٤٢]:
القسم الأول (ع١٩٨، ص٥ - ٨).
القسم الثاني (ع١٩٩، ص١٩ - ٢١).
القسم الثالث (ع٢٠٠، ص١٩ - ٢٠).

(٤) المتوكّل على الله جعفر بن المعتصم. خلافته (٢٣٢ - ٢٤٧هـ = ٨٤٧ - ٨٦١م).

الله. قال المسعودي المؤرّخ الشهير (ت:٣٤٦هـ = ٩٥٧م): «انّ الخليفة المتوكّل، أَحْدَث في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه، وهو المعروف بالحِيرِيّ والكُمَّيْن والأَروِقَة. وذلك انّ بعض سمّاره حدّثه في بعض الليالي، انّ بعض ملوك الحيرة مِن النعمانية مِن بني نصر، أَحْدَث بنياناً في دار قراره وهي الحيرة، على صورة الحرب وهيئتها للهجه بها ومَيْله إليها، لئلاّ يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله. فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر، والكُمّان ميمنة وميسرة. ويكون في البَيْتَيْن اللذين هما الكُمَّان مَن يَقْرب إليه من خواصّه. وفي اليمين منها خزانة الكسوة، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب. والرواق قد عَمَّ فضاؤه الصدر والكُمَّيْن. والأبواب الثلاثة على الرواق. فسُمِّي هذا البنيان بالحِيرِيّ والكُمَّيْن، إضافة إلى الحيرة، [والى ضَرْب مِن الثوب المصنوع فيها]. واتبع الناس المتوكّل في ذلك ائتماماً بفعله واشتهر الى هذه الغاية»(٥).

قال الآثاري الشهير الدكتور هرتسفلد: «إنّ العرب أجادوا في وصف هذا البناء أحسن الإجادة، ولقد صدقوا في قولهم انّ (الحِيرِي بكُمَّيْن) هو مثال عسكر روماني ذاهب الى الحرب بجناحين ميمنة ومَيْسَرة»(٦).

أمّا دُور الأمراء والوزراء وأماثل الناس وأعيانهم ببغداد، فكانت تتألّف من قصور كثيرة. وكان يلي الأبواب مِن داخل القصر: البَهْو وهو مُقَدَّم الدار وأعلاها بناءً، ويقف شامخاً تُزَيِّنُهُ الشُرُفات. يقول ابن المعتزّ في وَصْف قصر الثُرَيّا(٧) الذي بناه الخليفة المعتضد بالله، ببغداد:

حَلَلْتَ الثُرَيّا خيرَ دارٍ ومنزلٍ	فلا زال معموراً وبُورِكَ مِن قَصْرِ
وبُنْيانِ قَصْرٍ قد عَلَت شُرُفاتُه	كَصَفِّ نساءٍ قد تربَّعن في الأُزُرِ(٨)

---

(٥) مروج الذهب (١٩٢:٧ - ١٩٣).

(٦) (مجلّة «لغة العرب» ٢ [بغداد ١٩١٢] ص٥١٦ - ٥١٧).

(٧) و(٨) الثُرَيّا: قصر كبير، يضمّ أبنية بناها المعتضد بالله (خلافته ٢٧٩ - ٢٨٩هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢م)، قرب قصر «التاج» ببغداد الشرقية. وعمل بينهما سرداباً تمشي فيه حظاياه من القصر الحسني. عفى أثر «الثُرَيّا» في سنة ٤٦٦هـ (=١٠٧٣م). راجع: رسوم دار الخلافة (ص٧)، معجم البلدان (١٩٢٤:١ مادة «الثُرَيّا»).

وكان قَصْر الخلافة ببغداد، يضمّ دُوراً وبساتين ومُسَطَّحات مُظَلَّلة بالأشجار. كما يضمّ قِباباً وأروِقة. وكانت تزيد في جماله: البِرَك والأنهار المُرَصَّصَة، يجري فيها الماء. وكانوا يُرَصِّصُون الأنهار الصغيرة والسواقي، أي يَطْلُون أسافلها بالرصاص القَلْعِيّ شديد البياض. وهو أَجْود مِن الفِضّة المَجْلُوَّة، لكي لا يذهب الماء سدًى.

ومِن الدُور الشهيرة ببغداد التي شُيِّدت على طراز (الحِيرِيّ والكُمَّيْن): دار أبي القاسم عليّ[9] بن أَفْلَح. وكان شاعراً مُجيداً. عاش أيّام المسترشد[10] بالله الخليفة العبّاسي. وكان شَيَّد داره هذه، بعد أن غَرِم عليها عشرين ألف دينار، وقيل ألْف أَلْف دينار. وكان طولها ستّين ذراعاً في أربعين. وقد أُجْرِيَت[11] بالذهب، وعُمِلت فيها الصُوَر. وفيها الحمّام العجيب، فيه بيت مستراح فيه أداة يُسَمَّى «البثيون»[12]، إنْ فركه الإنسان يميناً خرج الماء حارّاً، وإنْ فركه شمالاً خرج بارداً.

وطَلَب أن يُكْتَب الشِعر[13] على أبواب داره هذه:

إنْ عجب الزوّار من ظاهري	فباطني لو علموا أعجب
شيّدني من كفّه مزنة	يحمل منها العارض الصيب
ودبجت روضة أخلاقه	فيَّ رياضاً نورها مذهب
صدر كسا صدري من نوره	شمساً على الأيام لا تغرب

وأن يُكْتَب على طُرُزها:

ومن المروءة للفتى	ما عاش دار فاخره
فاقنع من الدنيا بها	واعمل لدار الآخره

---

(٩) ترجمتُه في: المنتظم (١٠: ٨٠ - ٨٤)، مرآة الزمان (٨: ١٠٢ - ١٠٣)، البداية والنهاية (١٢: ٢١٥ - ٢١٦)، في التراث العربي: للدكتور مصطفى جواد (٢: ٧٥ - ٨٦). وكانت وفاة عليّ بن أَفْلَح، سنة ٥٣٣ هـ (= ١١٣٩ م).

(١٠) المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله. خلافته (٥١٢ - ٥٢٩ هـ = ١١١٨ - ١١٣٥ م).

(١١) أي مُوِّهَت بالذهب.

(١٢) البثيون: هو البزال الذي يُعْمَل مِن أنبوبة تثقب ثقباً، وتركّب في الثقب أنبوبة أخرى منتصبة تُدار فيه للفتح والسدّ. والأنبوبة المركّبة في الإناء تُسَمَّى الأنثى، والأنبوبة المركّبة في ثقب الأنبوبة تُسَمَّى الذكر. والكلمة مِن اليونانية. أنظر بشأن «البثيون»: مفاتيح العلوم: للخوارزمي (ص٢٥٢ - ٢٥٣).

(١٣) الظاهر انّ هذه الأشعار له.

هـاتيـك وافيـة بمـا وعـدت وهـذي ساحره

وأن يُكْتَب على الحِيرِيّ منها:

ونـادٍ كـأن جنـان الخلود أعـارتـه مِن حسنهـا رونقـاً
وأعطتـه مِن حـادثـات الزمـا ن ألاَّ تـلمّ بـه موثقـا
فـأضحى يتيـه على كـلّ مـا بنـى مغرباً كـان أو مشرقـا
تظـلّ الوفود بـه عكفـا وتمسي الضيوف لـه طرقـا
بقيـتَ لـه يـا جمال الملو ك والفضـل مهما أردت البقـا
وسالمـه فيـك ريـب الزمـان ووقيـت منـه الـذي يتقـا

وهذه دار أخرى، هي دار ابن جردة. لم تكن تقلّ سعة وعظمة عن دار ابن أَفْلَح. فقد كان محمد بن أحمد ابن جردة،[١٤] أحد الرؤساء ببغداد، أيّام الخليفة القائم[١٥] بأمر الله. وهو مِن ذوي الثروة والمروءة. وكانت داره الفخمة هذه، بباب المراتِب[١٦] ببغداد، يُضْرَب بها المثل، وكانت تشتمل على ثلاثين داراً، وفيها بستان وحمّام، ولها بابان، على كّل باب مسجد، إذا أَذَّن المؤذِّن في أحدهما، لم يسمع الآخر، مِن اتّساعها.

أمّا دار الوزير ابن[١٧] مُقْلَة، التي كان بناها ببغداد على شاطىء دجلة، فقد غرم عليها مالاً كثيراً يُقَدَّر بمئة ألف دينار، وقيل بمئتي ألف دينار. وأَلْحق بها بستاناً كبيراً جعله بيوتاً تأوَى إليه الطيور، وتفرّخ فيها. ثمّ أَطْلَق فيها القَماري والدَبَاسي والنُوبيات والشَحَارير والزِرْياب والهَزَار والفواخِت والطيور الـتي مِن أقـاصي البـلاد، مِن المصوّتـة، ومِن المليحـة الريش، فتوالَدَت. ثمّ عَمَدَ إلى ناحية أخرى مِن ذلك البستان العظيم، فطرح فيه

(١٤) ترجمته، وخبر داره هذه، في: المنتظم (٩:٩ - ١٠). توفّي ببغداد سنة ٤٧٦ هـ.

(١٥) خلافته: (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ = ١٠٣١ - ١٠٧٥ م).

(١٦) أحد أبواب دار الخلافة العبّاسية ببغداد، كثير الورود التاريخي في معاجم البلدان، وكُتُب التاريخ. قال فيه ياقوت، وابن عبد الحقّ: «كان مِن أَجَلّ أبوابها وأشرفها. وكان حاجبه عظيم القدر ونافذ الأمر. داخله محلّة كبيرة يسكنها الأكابر والتجّار والأشراف ذوو البيوتات القديمة. وكانت الدُور فيه غالية الأثمان عزيزة الوجود في أيام السلاطين ببغداد، لأنّه كان حرماً لمن يأوي اليه،...»: معجم البلدان (٤٥١:١)، مراصد الإطلاع (١١٣:١ - ١١٤).

(١٧) محمد بن عليّ بن عبد الله أبو عليّ المعروف بابن مُقْلَة، صاحب الخطّ الحسن المشهور. استوزره المقتدر والقاهر والراضي. مات سنة ٣٢٨ هـ. ترجمته وأخباره في: المنتظم (٣٠٩:٦ - ٣١١).

الطيور التي لا تطير، كالطَواويس والبَطّ. وجَعَل مِن خلف البستان الغِزْلان والنَعام والأيايل والأرانب والبقر البَدَوية والإبل وحُمُر الوحش. ولكلّ صَحْن أبواب تَنْفَتح الى الصحن الآخر، فيَرَى مِن مجلسه سائر ذلك.

وتتضاءل عظمة هاتيك القصور الضخمة، الشوامخ، أمام «الدار المُعزِّيَّة»[١٨] ببغداد. تلك الدار التي ابتدأ الأمير مُعِزّ الدولة البويهي، ببنائها في سنة خمسين وثلثمائة للهجرة (= ٩٦١ م)، في مكان يُعْرَف بالشَمّاسية في أَعْلَى مدينة بغداد. والشَمّاسية كانت تقوم في أَعْلَى الأعظمية، في البقعة المعروفة اليوم بـِ «الصليخ». وبلغت النفقة على هذه الدار رقماً لا يصدّقه العقل.

وكان مُعِزّ الدولة باني تلك الدار، مصاباً بأمراض صعبة. فأشار عليه أصحابه وأطباؤه، أن يبني له داراً في بقعة نزهة ذات هواء صاف وماء عذب. فوقع الإختيار على البقعة التي بالشمّاسية، وهو موقع حسن نزه كثير البساتين والأشجار والنخل.

وابتدأ بالبناء بعد أن أُختيرت له الآلات والجصّ والنورة. فوثق البناء وبالغ في الإحكام، وجلب له البنّاؤون الحذّاق من جميع البلدان الكبار يوم ذلك: مِن الموصل والأهواز وبلدان الجَبَل وغيرها.

وذكر بعض المؤرّخين، انّ مُعِزّ الدولة حفر لداره هذه أساساً نيفاً وثلاثين ذراعاً. بل قال المؤرّخ الثقة مسكويه (ت: ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م): انّ مُعِزّ الدولة «نزل سفلاً في الأرض لبعض الأساسات : ستاً وثلاثين ذراعاً، ورفعها الى وجه الأرض بالنورة والآجرّ، الى أن ارتفع فوق الأرض بأذرع»[١٩].

انّ هذه الأذرع الستّ والثلاثين، تساوي بمقاييس وقتنا، أكثر من ١٥ متراً.

---

(١٨) استوفى الكلام بشأنها: كوركيس عوّاد: (الدار المُعِزِّيَّة: مِن أشهر مباني بغداد في القرن الرابع للهجرة (مجلّة «سومر» ١٠ [بغداد ١٩٥٤] ج٢، ص١٩٧ - ٢١٧). وقد أُفرد في رسالة.

(١٩) تجارب الأمم (٦:١٨٣).

ولمّا كانت هذه الدار الفسيحة راكبة دجلة، فقد بَنَى لها مُسَنّاة[٢٠] عظيمة راسخة مِن حدّ رَقّة[٢١] الشمّاسية، الى بعض الميدان[٢٢]. وطول ما بناه منها ألف وخمسائة ذراع، وعرضها نيف وسبعون آجرّة كباراً سوى الدعائم التي تخرج منها الى داخلها لتضبطها. وهذه الدعائم هي المسمّاة في المراجع القديمة بـِ «الدستاهيجات».[٢٣] وتلك الدعائم المُدَوَّرة الشكل كأنّها الهاون.

ويُسْتَدلّ مّا ذكره المؤرّخون، انّ الآجرّ الذي كان شائع الإستعمال ببغداد، في المئة الرابعة للهجرة، كان مربّع الشكل، يبلغ طول ضلع ذي الحجم الكبير منه: خمسة وثلاثين سنتيمتراً، وثخنه بين ثمانية وتسعة سنتيمترات. أمّا سقوف الدار، فقد كان أكثرها من الساج المذهب. كما ازدانت هذه الدار بـِ «رَوْشَن»[٢٤] بديع،[٢٥] يشرف على خارج الدار.

وفي ما تَبَقّى مِن بقايا بعض المباني القديمة على قلّتها في بغداد، خير دليل على رقيّ الريازة، وتفنّن القوم وإبداعهم فيها.

---

(٢٠) المُسَنّاة: بضمّ الميم وفَتْح السين وتشديد النون، يليها ألِف فهاء منقوطة: هي البناء الحافظ للقصر من الماء. ويُقال لها بالفرنسية Quai وبالانكليزية Quay. وتُجْمَع على المُسَنّيات. والمُسَنّاة لفظة معروفة الى يومنا هذا في العراق. وتُلْفَظ عندهم «مُسَنّايَة».

(٢١) الرَقّة: هي الأرض التي يغمرها ماء النهر، ثمّ ينضب عنها.

(٢٢) روى التنوخي، انّ مُعِزّ الدولة «عمل الميدان على دجلة، متّصلاً بين القصر والبستان الشارع على دجلة الذي يلازق دار صاعد بن مَخْلد...، ثمّ صَيَّره أبو جعفر الصيمريّ بستاناً. والجميع الآن داخل في جملة قصر مُعِزّ الدولة: «نشوار المحاضرة (١:١٣٨ - ١٣٩؛ تحقيق: عبّود الشالجي).

فما ذكره التنوخي، يوافق قول مسكويه، انّ هذا الميدان كان ممتداً في محاذاة القصر على طول دجلة: «تجارب الأمم» ٦:١٨٣، وراجع: المنتظم (٧:٢).

(٢٣) راجع بشأنها: مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق (٣[١٩٢٣] ص٩، ٣٧٦).

(٢٤) الرَوْشَن: ويُجْمَع على الرَوَاشِن والرَوَاشِين: منظرة تشرف عادة على خارج البيت. وتُعْرَف اليوم في بغداد بلفظة «البالكون».

(٢٥) مناقب بغداد (ص٢٦).

أسعار الأراضي[1]

قد يعجب المرء اليوم حين يقرأ أو يسمع أن ثمن المتر المربّع الواحد مِن الأرض الكائنة عند ساحة النصر في شارع السعدون ببغداد، قد بلغ نحواً مِن ثلثمائة دينار. وقيمة المتر مِن الأرض المُتَوَسِّدة ضفة دجلة عند الباب الشرقي، بلغ مئات الدنانير.

ولا نُجانب الصواب، إذا ما قلنا انّ مثل هذه الأسعار العالية، كانت سارية في بغداد، أيّام بني العبّاس. وقد وقفنا على طائفةٍ من الأخبار في هذا الشأن، ننقلها للقراء.

حكى هلال بن المُحسِّن الصابىء (ت: ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م)، في عرض كلامه على الوزير عليّ بن عيسى بن داود بن الجرّاح. قال: «وحَدَّث أبو عليّ عبد الرحمن بن عيسى، قال: لمّا ابتاع أخي أبو الحسن عليّ بن عيسى، مِن تركة نازوك[2]، ووالدة القاسم بن عُبيد الله، الثلث مِن حصّتها في قصر القاسم، في سنة اثنتين وتسعين ومائتين، وأضاف إليه حصصاً ابتاعها الزوجات وبعض الأولاد الأصاغر، وعمل ذلك داره المعروفة بباب البستان، وكانت مُسَنَّاة القصر القديمة بعيدة مِن دجلة، فأخرج أحمد بن بدر عمّ

---

(١) في (مجلّة «لغة العرب» ٢ [بغداد - آب ١٩١٢] ج ٢، ص ٧٦ - ٧٧): نبذة بعنوان «ارتفاع أسعار الأرضين في بغداد» ونبذة أخرى بالعنوان نفسه، بتوقيع (ع...ن): («لغة العرب» ٣ [١٩١٤] ج ٩، ص ٤٦٧ - ٤٦٩). تشير كل نبذة الى ما كانت عليه أسعار الأراضي في بغداد، قبل الحرب العالمية الأولى.

(٢) أمير مِن ذوي التصرّف في الدولة العباسية، أيّام المقتدر بالله. قُتِل سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م.

السيّدة أمّ المقتدر بالله، مُسَنَّاةً لداره المجاورة له إلى الماء. وفعل عُبيد الله بن القاسم مثل ذلك من الجانب الآخر. وبقيت دار أخي مستورةً بينهما. فخاطبه أبو اسحاق ابراهيم أخونا في ذلك، وأعلمه ما في إخراج المُسَنَّاة حتى توازنهما مِن الزيادة في قيمة العقار. وكانت الذراع على دجلة في المواضع الرذلة على ذلك العهد تُباع بدينار عيناً. فقال له: قدّر لها ولما يُبْنَى عليها ما يحتاج إليه من النفقة. فقدَّر لذلك مائة ألف درهم، وصَوَّر البناء وأحضره الصورة والتقدير. فأقام أبو اسحق يحثّه على اطلاق المال والابتداء بالعمل، والوزير يَعِدُهُ ويدفعه، حتّى إذا اجتمع في خزانته ما جعله لذلك مِن ارتفاع ضيعته، تقدَّم الى خازنه بإحضاره،... وكان أبو اسحق ابراهيم ابن هلال جدّي ابتاع دار[٢] عُبَيْد الله بن القاسم من أبي الحسن بن أبي عمرو الشرابي حاجب الخلافة، بخمسة آلاف دينار، وكانت مُسَنَّاتها طاعنة في دجلة لا يفارقها الماء في سائر أوقات السنة»[٣].

يتّضح مِن هذا، انّ قيمة الذراع على دجلة في المواضع الرذلة، تُباع بدينار عيناً ذهباً! فليت شعري، ما قيمته في المواضع الجليلة المجاورة لقصور الخلفاء والأمراء والسلاطين، وأماثل الناس وأعيانهم؟ كالمواطن المجاورة لقصر التاج، أو للدار المُعِزِّيَّة، أو لدار الوزير ابن مُقْلَة في بستان الزاهر على دجلة؟

وفي خبرٍ آخر، يُنبىء عن غلاء أثمان الأراضي ببغداد، يوم ذاك. قال هلال الصابيء: «وحَدَّث أبو بكر بن ثوابة، قال: سمعتُ أبا الحسن بن الفرات يقول: حدّثني أخي، قال: قال لي عُبَيْد الله بن سليمان، قد أَلَحَّ عليَّ أمير المؤمنين، بأن أجعل بالجانب الغربي بازاء داره، ميداناً يكون تكسيره مائتي جريب. فقلتُ: أعوذ بالله أيّها الوزير مِن ذلك. قال: فانّي لا اجترىء على مخالفته ومراجعته. قال له أبو العبّاس: فإذا عاودك فاذكرني له لأُعرّفه ما في ذلك عليه. فعاود المعتضد بالله، عُبَيْد الله بن سليمان، وضجر عليه مِن

---

(٢) راجع بشأنها: أقسام ضائعة مِن كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (الذيل «الأول» ص٧٢، الذيل «الثالث» ص٧٣ – ٧٤).

(٣) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص٢٨٧ – ٢٨٨).

تأخيره ما أمره به. فقال: يا أمير المؤمنين: بالباب أحمد بن محمد ابن الفرات، فإذا شرّفه أمير المؤمنين بالوصول الى حضرته، ذكر ما عنده في ذلك. فأذن له. فحضر وسَلَّم وخدم، فقال له المعتضد بالله: ما عندك؟ فقال: طساسيج السَّواد يا أمير المؤمنين أربعة وعشرون طَسُّوجاً، أجلّها طَسُّوج بادوريا، وهو اثنا عشر رُسْتاقاً، أَجَلُّها رُسْتاق الكرخ، وهو اثنتا عشرة قرية، وأَجَلُّها ما على دجلة. وكلّ جريب منه يساوي ألف دينار، ويغلّ ألف درهم. أَفَيَرى أمير المؤمنين إضاعة مائتي ألف دينار، يشيع خبرها فيما لا فائدة فيه. قال: لا والله، فاطلبوا لنا موضعاً آخر. قال: يكون ما بَيْن الحَلْبة والرحبة. فتقدّم بالعمل على ذلك »[٤].

ولم يكن هذا الغلاء موقوفاً على المواضع الشاطئة، بل كان أيضاً في غير موطن مِن داخل بغداد. فقد أخبرنا ياقوت الحموي، عند كلامه على « باب المَراتِب »، قال: هو « أحد أبواب دار الخلافة ببغداد. كان مِن أَجَلّ أبوابها وأشرفها. وكان حاجبه عظيم القدر ونافذ الأمر. فأمّا الآن فهو في طرف مِن البلد، بعيد كالمهجور، لم يبقَ فيه إلاّ دُور قومٍ مِن أهل البيوتات القديمة. وكانت الدُور فيه غالية الأثمان، عزيزة الوجود في أيام السلاطين ببغداد، لأنّه كان حرماً لمن يأوي إليه. فأمّا الآن فليس للمساكين فيه قيمة. ورأيتُ به دُوراً كثيرة احتاج أهلها وأرادوا بَيْعها، فلم تُشْتَرَ منهم، فباعوا أنقاضها وساجها على مَن يعمر به موضعاً آخر... »[٥].

---

(٤) تحفة الأمراء... (ص٢٥٧ - ٢٥٨).

(٥) معجم البلدان (١:٤٥١). وأضاف ابن عبد الحقّ: مراصد الإطلاع (١:١١٣ - ١١٤) قوله: « ...داخله محلّة كبيرة يسكنها الأكابر والتجّار والأشراف ذوو البيوتات القديمة... ».

التبريد الصناعي للبيوت

اتّخذ الناس في بغداد قديماً، خاصة الأغنياء منهم وأهل النِعَم، وسائل للتبريد والتهوية، أيّام الصيف الحارّة. فَمِن اتّخاذ السَراديب[1] تحت الأرض، الى الإكثار مِن الباذِهْنجات[2]، الى نَصْب الخَيْش[3]، وبَلِّهِ بالماء البارد، الى بناء قِباب مِن القصب الرَطْب الأخضر، الى غير ذلك مِن الوسائل.

وقد غَلَب اتّخاذ الخَيْش أيّة وسيلة أخرى للتبريد أيّام الصيف في بغداد.

---

(١) واحدها: سِرْداب. فسَّره في «القاموس» بأنّه بناء تحت الأرض للصيف. والكلمة مركّبة مِن «سَرْد» أي بارد، ومِن «آب» أي ماء.

(٢) جَمْع «باذِهْنج» تعني ما يُعْرَف اليوم بـِ «الباذْكِير». وأجاد بعضهم في تسميته «راووق النسيم». ومعنى «الراووق»: المصفاة.

قال الخفاجي «شفاء العليل» ص٤٧ - ٤٨: «وهو مُعَرَّب بادخون أو بادكير. وهو المنفذ الذي يجيء منه الريح.

قال أبو الحسن الأنصاري:

ونفحـــة بــــادهنــــج أسكرتنـــا ... وجـــــدت لروحهـــا بَرْد النعـــيم
صفـــا جري الهوا فيـــه رقيقـــاً ... فسمينـــــــــــــاه راووق النسيم

ويطلقون عليه في الموصل «الزَنْبُور».

(٣) الخَيْش: نسيج مُتَخَلْخل، غليظ الخيوط، يُتَّخذ مِن مشاقة الكتّان. فهو أشبه ما يكون النسيج الذي نسمّيه اليوم بـِ «الجنفاص».

ذكر البَيْهقي: «المحاسن والمساوىء» (٢: ٥٠): انّ أوّل مَن عُلّق له الخَيْش لإتقاء الحرّ: أمير العراق الحجّاج بن يوسف الثقفي.

ذَكَر بعض المؤرّخين، انّ الخليفة العبّاسي المنصور، كان يُطَيَّن له في أوّل خلافته[٤]، بيتٌ في الصيف، يَقيل فيه، فاتّخذ له وزيره أبو أيّوب المورياني، ثياباً كثيفة تُبَلّ وتُوضَع على الآلة التي يُقال لها «سِبَايَة» فَوَجَد بَرْدَها فاستَطابها. فقال: ما أحسَبُ هذه الثياب لو اتُّخِذَت مِن أكثف مِن هذه، إلاّ حَمَلَت مِن الماء أكثر ممّا تَحمِل، وكانت أبرَد، فاتُّخِذ له الخَيْش[٥]. فكان يُنْصَب على قُبَّة. ثمّ اتُّخِذَت بعدها الشرائح[٦]، فاتَّخذها الناس[٧].

حَدَّث بعضهم، قال: دَخَلْتُ على الرشيد، فإذا هو في هيئة الصيف، في بيت مكشوف، وليس فيه فَرْش، على مقعد عند باب في الشقّ الأيمن مِن البيت، وعليه غِلالة رقيقة وازار رشيدي... وكان لا يُخَيَّش البيت الذي هو فيه، لأنّه كان يُؤْذِيه، ولكنّه كان يُدْخَلُ عليه بَرْد الخَيْش ولا يجلس فيه. وكان أوّل مَن اتَّخَذَ في بيت مقيلِهِ في الصيف، سَقْفاً يلي سَقْف البيت الذي يَقيل فيه. وكان يُؤْتَى بغلائل القَصَب، فَتُغْمَس بالطِّيب والزَعْفران وماء الورد، فتُنْشَر حتَّى تَجِفّ، فيُفْعَل ذلك مراراً، فيَعْبَقُ بَيْتُ مَقيلِهِ بالبخور والطِّيب.[٨]

وقد ذَكَر المؤرّخون بشأن «المِرْوَحَة»[٩] انّها مُحْدَثَة في زمن بني العبّاس. وكان سبب حدوثها انّ هرون الرشيد، دَخَل يوماً على اخته عُلَيَّة بنت المهدي، في قَيْظ شديد، فألفاها قد صَبَغَت ثياباً مِن زَعفران وصَنْدَل، ونَشَرَتْها على الحبال لتجفّ. فجلس الرشيد قريباً من الثياب المنشورة، فجعلت الريحُ تمرّ على الثياب، فَتَحْمِل منها ريحاً بليلة عَطِرة، فوَجَدَ لذلك راحةً مِن الحرّ واستطابة. فأَمَرَ أن يُصْنَع له في مجلسه مِرْوَحَة.

---

(٤) خلافته: (١٣٦ - ١٥٨ هـ = ٧٥٤ - ٧٧٥ م).

(٥) الفخري في الآداب السلطانية والدُوَل الإسلامية (ص٢١٥، ط. درنبرغ. باريس ١٨٩٥).

(٦) الشرائح: جدائل مِن القَصَب تُجْعَل على الأبواب.

(٧) و(٨) تاريخ الرسل والملوك (٣:٤١٧ - ٤١٨، سنة ١٥٨ هـ؛ و٧٥٢ - ٧٥٣، سنة ١٩٣ هـ)، لطائف المعارف (ص١٤ - ١٥).

(٩) راجع بشأنها: العقد الفريد: لابن عبدربّه (٦:٤٢٤)، مطالع البدور في منازل السرور (٢:٤٦ - ٤٧)، حَلْبَة الكميت (ص١٥١ - ١٥٢)، تحفة المُجالس ونزهة المَجالس: للسيوطي (ص٣٠٠)، المراوح والخُيُوش: لناجي محفوظ: (مجلّة «العاملون في النفط» ٦ [بغداد - أيلول ١٩٦٦] ع٥٤، ص٦ - ٩)؛ مروحة السقف: له أيضاً: «العاملون في النفط» ٨ [أيار ١٩٦٩] ع٨٣، ص١٠ - ١٢).

والمِرْوَحَة هذه - كما وَصَفها الشريشي (ت:٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م) -: هي مِن الخَيْش، تكون شبيهة الشراع للسفينة، وتُعلَّق في سَقْفٍ، ويُشَدُّ بها حَبْلٌ يُحرِّكها، وتُبَلّ بالماء، وتُرَشّ أحياناً بماء الورد. فإذا أراد الإنسان في القائلة أن ينام، جَذَبَها بحبلها، فتذهب بطول البيت وتجيء، فَيَهُبّ عليه منها نسيم بارد طيّب الريح، فَيَذْهَب عنه أَذَى الحرّ، ويَسْتطيب، وهي فوقَهُ ذاهبةٌ وجائية.

هذه حكاية «مروحة السقف». أمّا «مروحة اليد» فقد وَرَد ذكرها أيضاً أيّام بني العبّاس. قال ابن الجوزي: «وكان [محمد بن عبد الله بن أحمد ابن حبيب المعروف بابن الجنازة] يَتَدَيَّن ويعظ، ويتكلّم على طريقة التصوّف والمعرفة، من غير تكلّف الوعّاظ، فكم مِن يوم صعد المنبر وفي يده مروحة يتروَّح بها،...»(١٠).

أمّا «السراديب» فإنّها لم تُتَّخَذ للسكنى أيام الصيف ببغداد، وفي صدر الدولة العباسية، بل اتُّخِذَت مِن بَعْد ذلك، وشاع أمرها، وغالَى الناس بالعناية بها، لتكون مريحة في الصيف. فإنّ أهل الترف والبذخ، كانوا يبالغون في العناية بأمرها، ويبذلون المال الكثير في تزيينها وتنظيمها، ونَصْب الشاذروانات فيها، كما كانوا يَتَّخِذون فيها الباذِهْنجات. فكان الناس ببغداد في أيام الصيف، يمضون عامّة نهارهم في تلك السراديب، ينعمون بالهواء البارد، كما كانوا يملأون كيزان الخزف بالماء، ويضعونها بين أيدي تلك الباذِهنجات، فيبرد الماء لساعته.

وساق الصفدي خبراً طريفاً، جاء فيه: «... وقيل انّ الناس تَعَجَّبوا على كثرتهم وشربهم الماء مُبَرَّداً في كيزان، عامّة ذلك النهار، فسُئِل عن ذلك فيما بعد، فقال: اشترينا خمس مئة كُوز، وبعثنا الى الجيران قليلاً قليلاً، بَرَّدوا ذلك في الباذهْنجات التي لهم...»(١١).

---

(١٠) المنتظم (١٠:٦٤؛ حوادث سنة ٥٣٠ هـ).

(١١) الوافي بالوفيات (١:٢٢٤).

تبريد الماء بالثلج

ولع الناس قديماً في بغداد بالثلج أيام الصيف، فكانت قصور الخلفاء والأمراء والسلاطين وأماثل الناس وأعيانهم، لا تخلو من خزائن يُخْزَن فيها الثلج[١].

وفي كتُبُ الأدب والتاريخ والبلدان، ودواوين الشعر ونحوها، أخبار طريفة عن الثلج واتّخاذه في هاتيك الأيام البعيدة.[٢]

وقد اقترن ذِكْر الثلج بترجمة وزير شهير خطير ببغداد، كان يصول ويجول في النصف الأول من المئة الرابعة للهجرة. هو: ابو الحسن عليّ بن محمد ابن الفرات. صار وزيراً للخليفة. المقتدر بالله، ثلاث مرّات[٣]. وممّا يُذْكَر عنه، انّه كان كلّما تَقَلَّد الوزارة، يزيد سعر القراطيس، والشمع والخَيْش والثلج، زيادة وافرة. وكان ذلك متعارفاً عند التجّار لكثرة ما كان يستعملها ويُخرج مِن داره للناس[٤].

---

(١) قيل أنّ أوّل مَن نُقِل له الثلج، وَوُضِع في بيت الشراب: أمير العراق الحَجّاج بن يوسف الثقفي: (الأعلاق النفيسة، ص١٩٨)، (المحاسن والمساوىء ٢ :٥٠).

(٢) لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي «رسالة في تبريد الماء على الثلج، وتبريد الماء يقع الثلج فيه». وأخرى «رسالة في العِلّة التي زَعَم بعض الجُهّال انّ الثلج يُعَطِّش». أنظر: الفهرست: لابن النديم (ص٣٥٩، ط.طهران)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص٢٧٦).

(٣) أسهب هلال الصابىء، في أخبار وزاراته الثلاث (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص٨ - ٢٦٠).

(٤) أنظر في هذا الشأن: تجارب الأمم (٥ :١٢٠)، ثمار القلوب (ص١٦٨ - ١٦٩)، تحفة الأمراء (ص٦٣)، المنتظم (٦ :١٣٨)، الكامل في التاريخ (حوادث سنة ٣١٢هـ)، وفيات الأعيان (١ :٥٣٠)، الفخري (ص٣٦١).

وكان في ناحية مِن قصره « دار كبيرة للشراب، وفيها ماذيان يُجْعَل فيه الماء المُبَرَّد ويُطرح في الثلج، ويُسْقَى منه جميع مَن يريد الشرب: الرَجَّالة والفرسان والأعوان والخُزّان ومَن يجري مجرى هذه الطبقة مِن الأتباع والغلمان، ومُزَمَّلات[٥] فيها الماء الشديد البرد. وبرسم خزانة الشراب، خَدَم نظاف عليهم الثياب الدبيقية السريّة. وفي يد كلّ واحد منهم قدحٌ فيه سكنجبين أو جُلّاب... وكوز ماء، ومنديل من مناديل الشراب نظيف، فلا يتركون أحداً مِمَّن يحضر الدار من القوّاد والخدم السلطانيين والكُتَّاب والعُمّال، إلاّ عرضوا ذلك عليه »[٦].

وكان السلطان عَضُد[٧] الدولة البويهي، في أواخر أيّام دولته ببغداد، أَحْدَث رسوماً كثيرة، منها انّه حظر عمل الثلج، وجعله خاصاً بالسلطان. وكان مِن قَبْل لمن يريد عمله والمتّجِر فيه[٨].

وكان الناس يوم ذاك ولا سيما (الثلاّجون)، ينتهزون فرصة سقوط البَرَد، فيجمعونه، ويكبسونه في مثالج تحت الأرض معدّة لذلك، حتّى إذا أَقْبَل الصيف، يبيعونه بثمن عال.

ويحكي البلدانيون، انّ الثلج كان يُحْمَل الى بغداد مِن أماكن بعيدة. وللماء المُثَلَّج أخبار طريفة في الأدب والشِعر.

ويُعَدّ شراب الثلج من الأشربة المُعْتَبَرة. وأكثر ما كان يُتَّخَذ في الحفلات. وَصَف بعضهم حفلة أُقيمت ببغداد، في ليلة مِن ليالي الصيف،

---

(٥) واحداتها: المُزَمَّلَة. مازالت هذه اللفظة معروفة عند أهل الموصل. ويُريدون بها إناءً كبيراً مِن الرخام أو مِن الصخر المعروف بالحِلاّن. يُنْحَت ويُنْقَر مِن قطعة كبيرة بشكل (متوازي المستطيلات) المجوَّف. لا يقلّ طول ضلعها الكبيرة عن متر. ويُخزَن فيها الماء فتبرّده. وفي أسفلها ثقب صغير، يُفْتَح حين يُراد تصريف الماء منها. ويتَّخذون لها غطاءاً مِن الصخر نفسه، ذا فتحة مستديرة يُرْفَع حين أَخْذ الماء من المُزَمَّلَة. أمّا عند أهل بغداد، فهي جَرَّة أو خابية خضراء، في وسطها ثقب، مركَّب فيه قصبة فضّة أو رصاص يُشْرَب منها. وكلمة « المُزَمَّلَة » لم تزل شائعة في بغداد. وقد حُرِّفت فأصبحت « مُزَمْبَلَة ». وتُطلَق على قصبة الحديد أو الرصاص التي يصبّ منها الماء.

(٦) تحفة الأمراء (ص١٩٥).

(٧) هو أبو شجاع فنّاخُسْرو، المُلَقّب عَضُد الدولة. أشهر ملوك بني بُوَيْه. عُني باصلاح ما خرب من بغداد، وبَنَى فيها البيمارستان العَضُدي، في الجانب الغربي منها. توفّي ببغداد سنة ٣٧٢ هـ (=٩٨٣ م).

(٨) ذيل تجارب الأمم (ص٧١، حوادث سنة ٣٧٢ هـ).

قبل نحوٍ مِن سبعمئة سنة. قال: انّ جميع ما شُرِب في تلك الليلة مِن أوّلها الى آخرها، مصنوع بالثلج والسُكَّر وماء الورد والمِسْك، ونحو ذلك. والسُقاة يملأون الكيزان[٩] مِن ذلك على الدوام.

وكان القوم يوم ذاك يُعْنَون بتبريد الفواكه ونحوها بالثلج. قالوا في صفة التوت: انّ التوت النضيج المُبَرَّد بالثلج ينفع المعدة التي غلب الحرّ عليها واليبس.

ومَن يتعاطى بَيْع الثلج، يُقال له الثلاَّج. وكان الثلاّجون عندما يشتدّ الحرّ، يرفعون أثمان الثلج حتى تصل أحياناً الى حدّ الخيال. وقد أثرى غير واحد من أولئك القوم مِن بَيْعهم الثلج، وأصبحوا أصحاب ثروات طائلة.

حَكَى ابن سليمان الثلاّج عن أبيه، وهو رجل بغداديّ، قال: «كان أصل نعمتي مِن ثمن خمسة أرطال ثلجاً، وذلك انّه عَزَّ الثلج في بعض السنين ببغداد، وقَلّ. وكان عندي منه شيء بعتُهُ، وبقي منه خمسة أرطال. فاعتلَّت شاجي جارية عُبَيْد اللّه[١٠] بن عبد اللّه بن طاهر، وهو إذْ ذاك أمير بغداد، فطلبت منه ثلجاً، فلم يوجد إلاّ عندي. فجاؤوني، فقلتُ: ما عندي إلاّ رطل واحد، ولا أبيعه إلاّ بخمسة آلاف درهم، وكنتُ قد عرفتُ الصورة. فلم يجسر الوكيل على شراء ذلك، ورجع يستأذن عُبيد اللّه، وكانت شاجي بمنزلة روحه، وهي تَتَضَوَّر على الثلج، وتلحّ في طلبه. فشتمه عبيد اللّه، وقال: امضِ واشترِه بأيّ ثَمَن كان ولا تراجعني. فجاءني، فقال: خذ خمسة آلاف درهم، وهات الرطل. فقلتُ: لا أبيعك إيّاه إلاّ بعشرة آلاف درهم، فلم يجسر على الرجوع للإستئذان. فأعطاني عشرة آلاف درهم، وأَخَذ الرطل. وسُقيت العليلةُ منه، فقويت نفسها، وقالت: أريد رطلاً آخر.

---

(٩) جَمْع كُوز. أنشد أبو اسحاق الصابيء:

لَهْـــفَ نفسي عـــلى المُقـــام ببغـــدا ... دِ وشُرْبِي مِن مـــــاء كُوزٍ بثلـــــجِ

(١٠) عُبَيْد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر بن الحسين بن مصعب، أبو أحمد الخُزَاعي: أديب شاعر. انتهت إليه رئاسة أسرته. ولي امارة بغداد. وجدّه طاهر بن الحسين ذو اليمينين الذي ولاّه المأمون خراسان والمشرق سنة أربع ومئتين. توفّي عُبيد اللّه سنة ٣٠٠هـ = ٩١٣م ترجمته وأخباره في: تحفة الأمراء (ص١٦٩، ١٩٠، ١٩١، ٢١٩)، المنتظم (٦:١١٧ - ١١٩)، الأعلام (٤:١٩٥).

فجاءني الوكيل بعشرة آلاف درهم، وقال: هات رطلاً آخر، إنْ كان عندك. فبعثُ ذلك عليه. فلمّا شربته العليلة تماثلت، وجلست، وطلبت زيادة، فجاؤوني يلتمسون ذلك. فقلتُ: ما بقي عندي إلاّ رطل واحد، ولا أبيعه إلاّ بزيادة، فداراني، وأعطاني عشرة آلاف درهم، وأخذ رطلاً. وداخلتني رغبة في أن أشرب أنا شيئاً من الثلج، لأقول انّي شربتُ ثلجاً سعر الرطل منه عشرة آلاف درهم. قال: فشربتُ منه رطلاً. وجاءني الوكيل قرب السحر، وقال: اللهَ، اللهَ، قد والله صلحت العليلة، وإنْ شربت شربة أخرى بَرَأتْ، فإنْ كان عندك منه شيء، فاحتكِمْ في سِعْره. فقلتُ له: والله ما عندي إلاّ رطل واحد، ولا أبيعه إلاّ بثلاثين ألفاً. فقال: خذ. فاستحييتُ مِن الله أن أبيع رطل ثلج بثلاثين ألفاً. فقلتُ: هات عشرين ألفاً، واعلم أنّك إنْ جئتني بعدها بملء الأرض ذهباً، لم تجد عندي شيئاً، فقد فَنِيَ. فأعطاني العشرين ألف، وأخذ الرطل. فلّما شَرِبَتْه شاجي، أفاقت، واستدعت الطعام، فأكلت، وتَصَدَّق عبيد اللّه بمال. ودعاني مِن غدٍ، فقال: أنتَ - بعد الله - رددتَ حياتي بحياة جاريتي. فاحتكم. فقلتُ: أنا خادم الأمير وعبده. قال: فاستخدمني في ثلجه وشرابه، وكثير من أمر داره. فكانت تلك الدراهم التي جاءتني جملة، أصل نعمتي، وقويت بما انضاف إليها من الكسب مع عُبيد الله، طول أيامي معه»[١١].

(١١) نشوار المحاضرة (١:١٢٥ - ١٢٧). وقد نَقَلَها عن التنوخي: ابن الجوزي: (المنتظم ٦: ١١٨ - ١١٩، حوادث سنة ٣٠٠ هـ)، وابن كثير: (البداية والنهاية ١١: ١١٩).

النجارة وفنون الحفر على الخشب

كانت بغداد في العصور السالفة، منبتاً لطائفة كبيرة مِن أنواع الصناعات وضروب الفنون. وقد نَمَت وازدهرت، وطارت شهرتها في ديار المشرق والمغرب مدى عصور مديدة.

إنّ تلك الصفحات المشرقة، كان لها عظيم الأثر في الحضارة العالمية. وبين أيدينا الآن صفحة طريفة، هي: صناعة النجارة والحفر على الخشب، وما إلى ذلك.

وقد تَفَنَّن البغداديون بهذه الصناعة أيّما تفنّن، وتركوا لنا طائفة مِن آثارها الجميلة.

يَتَصَدَّر «مِنْبَر القَيْروان» المكانة الأولى في عالَم النجارة والحفر على الخشب. فإنّ رجال الفَنّ العباسيين ببغداد، ابتكروا أشكالاً جديدة في هذا الميدان، ذات مَظْهر زُخْرفيٍ رائع، أضافوه الى الأساليب الأُموية التي كانت شائعةً في العراق يوم ذاك. وامتاز أولئك الفَنّانون، بأنّهم ابتكروا العناصر الزُخْرُفية مع اختلاف عُمْق الحَفْر. وقد سَلِم مِن هذا الفنّ الرائع: مِنْبر مِن خشب الساج، صُنِع ببغداد أيّام الخليفة هرون الرشيد[1]. له أهمية بالغة في عالَم الفَنّ. موجودٌ اليوم في مسجد القَيْروان بتونس، يعارك صروف الدهر.

وتذكر المراجع التاريخية، انّ هذا المِنْبر الفخم، جُلِب مِن بغداد في نهاية

(١) خلافته: (١٧٠ - ١٩٣هـ = ٧٨٦ - ٨٠٨م).

عصر الأمير الأغلبيّ أبي ابراهيم أحمد، سنة ثمان وأربعين ومئتين للهجرة (=٨٦٢م)، واستقرَّ في جامع القَيْروان. ويُعَدّ أقدم المنابر في العالَم الإسلاميّ.

والمِنْبَر البغداديّ هذا، كما يصفه أُولو العِلْم والمعرفة بالفنون الإسلامية، يتكوَّن مِن صفوفٍ مِن الحَشَوات المقسَّمة الى مناطق مستطيلة، تزيّنها الزخارف الهندسية المتشابكة، أو النباتات المجرَّدة، أو تفريعات مِن طراز ورق العِنَب، وفي إحدى الحَشَوات، شجرةُ نخيلٍ مستمدّة مِن شجرة الحياة الشرقية. ويُعْتَبَر مَثَلاً رائعاً مِن أَمْثِلة الحَفر على الخشب مِن المدرسة المعروفة في عالَم الفَنّ بـِ «مدرسة بغداد».

وبرع النَجّـارون العبّـاسيون البغـداديون، في تزيـين سقوف الـدُور والقصور، بالخشب. يقول المؤرّخون، انّ سقوف «الدار المُعِزِّيَّة» كان أكثرها من خشب الساج المذهب.

و «الدار المُعِزِّيَّة»[٢] بناها الأمير مُعِزّ الدولة، بالشَمَّاسية في أَعْلَى مدينة بغداد، سنة خمسين وثلثمائة للهجرة (=٩٦١م)، ونالت شهرة بعيدة في التاريخ.

وتَفَنَّن القوم ببغداد في صناعة النجارة، فصنعوا ضروب الآلات: صنعوا المَوْثِبة، والصَرَّافة، والمشاجب، وأقداح الخشب، ونحوها مِن آلات البيت.

و «المَوْثِبة» هي الوِثاب، وهو السرير والمقعد والكرسيّ، يُهَيّأ للجلوس، انتظاراً للمثول بين يدي الخليفة أو الأمير.

و «الصَرّافة»: الصندوق. بيتٌ صغير مستطيل، من اللوح. يُسَمَّر في جانبه الأَعْلَى. تُوضَع فيه الأمتعة الصغيرة.

ومن جملة تُحَف الخشب التي ترتقي الى بداية العصر العباسي: بابٌ من خشب، عُثِر عليه في ضواحي بغداد. محفوظ اليوم في متحف بناكي بأثينة. يتألَّف من مصراعَيْن تُزَيّنها زخارف على جانب كبير من جمال الفَنّ وروعة الصَّنْعة.

---

(٢) سبقت الإشارة إليها في البحث الموسوم بـِ «هندسة البناء» في كتابنا هذا.

وتحتضن دارِ الآثار العربية في بغداد، تحفاً مِن الخشب منها: صندوق ضريح، صُنع بأمر الخليفة العبّاسي المستنصر بالله، سنة ٦٢٤ هـ (= ١٢٢٧ م).

حُفِر على وجوهه الأربعة كتابة كوفية ذات زخارف بديعة.

وأبواب مِن الخشب، مطعّمة بالعاج والفضّة، نُقِلت مِن جامع سامراء.

وباب خشب، نُقِل مِن الجامع الكبير في العمادية. صُنع في عهد بدر الدين لؤلؤ[٣].

وباب نُقل مِن مرقد (النبي جرجيس) في الموصل. يرتقي الى أواخر المئة السادسة للهجرة[٤].

هذه طائفة من الأخبار، تُفْصح عن ناحية طريفة من مناحي الحضارة في بغداد، هي «صناعة النجارة وفنون الحفر على الخشب» وما بَلَغَتْهُ مِن روعة واتقان، مازال بعض معالمها ظاهراً للعيان.

---

(٣) الملك الرحيم لؤلؤ بن عبدالله الأتابكي، أبو الفضائل، بدر الدين: صاحب الموصل. وُلد سنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٤. كان عالي الهمّة. طالت أيامه بالموصل. توفّي بها سنة ٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ م.

(٤) راجع بشأن هذه التحف: دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان (ص: ٢٤؛ الغرفة - رقم - ١٦ - ٤، ص٢٦ - ٢٧، الغرفة - رقم ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠).

قلنا: متحف الآثار العربية: نُقلت معروضاته من خان مرجان وحُفظت في المتحف العراقي ببغداد.

النَحْت على الحَجَر والآجُرّ والجِصّ

يظهر فَنّ النَحْت في العصور الإسلامية الأولى، مِمّا بقي مِن الزخارف في المساجد والمدارس والقصور والمنازل، التي شُيِّدت في العراق أيّام حُكم خلفاء بني العبّاس.

إنّ النشاط الفنيّ العظيم، في القصر العباسي، يقترن بنشأة مدينة بغداد، وبتأسيس مقرّ الخلافة الموقّت في سامراء، على نهر دجلة.

ودار الفلك دورانه، فجاء السلاجقة الأتراك، ففتحوا العراق في أواخر النصف الأول مِن المئة الخامسة للهجرة، فنتج عن ذلك أن تطوَّرت فنون الزخارف. فقد شاع في أيّامهم نَحْت الأشكال (الآدمية والحيوانية) على المباني والقناطر وأبواب المدن الكبيرة كبغداد والموصل.

وكان على باب الطِلَّسْم[١] ببغداد، الذي يرتقي الى سنة ثماني عشرة وستمائة للهجرة (= ١٢٢١ م)، نقشٌ يتضمَّن اسم الخليفة العبّاسي الناصِر[٢] لدين الله، ويُزَيِّن عِقْد ذلك الباب، نقشٌ بارز يُعْتَبَر مِن أحسن الأمثلة المعروفة للنَحْت. وموضوع النقش، يمثّل الخليفة وهو جالسٌ وعلى جانبَيْه تِنّينان قد انعقد جسمُ كلّ منهما، وتكسو الأرضية زخارف التوريق الدقيقة الجميلة.

---

(١) باب الطِلَّسْم ببغداد، هو المعروف أيّام بني العبّاس بـ «باب الحَلْبَة». اتّخذه الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى، مذخراً لعتاد جيشهم، وعند انسحاب هذا الجيش، نسفه في شهر آذار سنة ١٩١٧.

(٢) خلافته: (٥٧٥ - ٦٢٩هـ = ١١٨٠ - ١٢٣١م).

وفي صدر الدولة العبّاسية، شاع ببغداد أسلوب نَحت، أُطلِق عليه بـِ «النَحْــت المَشطُوف». وأساس هــذا الأسلوب، أن تُنْحَــت العنــاصر الزخرفية نَحْتاً مائلاً، وتتقابل حوافيها بعضها ببعض في شكل زوايا منفرجة. واتُبِعت هذه الطريقة الزخرفية أيضاً في النَحْت على الحَجَر والخشب. وفي متحف متروپوليتان في نيويورك، تاج عمود مِن المرمر، جميل للغاية، يتمثّل فيه النحت المشطوف، يرتقي الى أيّام هرون الرشيد.

وكان للجِصّ الصدارة في ميدان الزخرفة والريازة. فقد اتُّخِذ في تزيين المساجد، والقصور، ومنازل العظماء، وسراة القوم يوم ذاك. وكانت الزخارف على العموم مُتْقَنَة الصَنْعَة، تمثّل مناظر الصيد، وحفلات قصور الخلفاء والأمراء والسلاطين ببغداد، في مجالسهم، ومن حولهم: الجند وأفراد الحاشية.

وتَتَصَدَّر زخارف «القصر العبّاسي»[٣] ببغداد، المكانة الأولى بين زخارف العمارات في العراق، بل ليس لها نظير في أيّ مكان مِن البلدان الأخرى خارج العراق.

صُنِعت زخارف هذا القصر من الآجُرّ. ونظراً للدقّة المتناهية والمهارة الفائقة التي امتازت بها زخارف هذا القصر. فقد خُيِّل لبعض العلماء، انّ تلك الزخارف، صُنِعت مِن الجِصّ، حيث صُبَّت بقوالب خاصّة.

تتكوّن تلك الزخارف من تلاصق قِطعٍ من الآجُرّ بعضها ببعض، ذات أشكال وحجوم مختلفة. كلّ قطعة محفورة ومنقوشة بنقوش خاصّة.

انّ الأشكال التي تتكوّن من تلاصُق هذه القِطَع، هندسية على العموم. أمّا النقوش المحفورة على كل قطعة منها، فهي زَهْرِيَّة على الأكثر.

انّ التنوّع الذي يُشاهَد في طراز زخرفة الآجُرّ في هذا القصر، يَخْلُبُ الألْباب. فمن تزيينات هندسية بحتة، الى تزيينات زَهْرِيَّة بحتة، وزخارف مُكَوَّنة من امتزاج هذين النوعَيْن، ومِن تزييناتٍ تحاكي الطنافس المنسوجة، الى مُقَرْنَصات تشابه الأحجار المنحوتة، ونقوش تماثل الأخشاب المنقورة.

---

(٣) راجع: «بقايا القصر العبّاسي في قلعة بغداد». أصدرته مديرية الآثار القديمة. بغداد ١٩٣٥.

هذا عَرْض موجز لفنون النَحْت على الحجر والآجُرّ والجصّ ونحوها، في بغداد دار السلام، في عصورها السالفة، وما بَلَغَتْهُ تلك الفنون من روعة واتقان، مازال بعض معالمها شاخصاً للعيان، ينطق بما كانت عليه مِن عِزٍّ وازدهار.

صناعة الفَخّار والخَزَف والفَضار

يَتَصَدَّر الخَزَف العبّاسي المُحَلَّى بزخارف ذات بريق معدني، المكانة الأولى بين زخارف العالَم الإسلاميّ يوم ذاك.

ويُقْسَم الخَزَف العبّاسي الى مجموعتَيْن« الأولى تضمّ جِراراً كبيرة مُغَطّاة بدهان بَرّاق أزرق أو أخضر، عليها زخارف بارزة مُكَوَّنة مِن أَشْرِطة وتفريعات نباتية »[1].

أمّا المجموعة الثانية، فتتكَوَّن مِن أوانٍ أكثر رِقَّة، تشتمل على صحون صغـيرة، وسُلْطـانيـات، وقوارير، ومسارج، وأقـداح، وكؤوس، وعُلَـب، ومباخِر، وشَماعِد، وبيوت للطيور، ومساند للأقلام، وتماثيل، وشبابيك القُلَل، وأشياء أخرى لا تُعَدّ ولا تُحَدّ.

إنّ صناعة « البريق المعدني » كانت حقّاً مِن الابتكارات العظيمة التي اهتدى إليها الخَزّافون المسلمون في المئتَيْن الثانية والثالثة للهجرة. وقد أخرجت لنا حفريات بغداد وسامراء، مجموعة على جانب كبير مِن الروعة والبهجة، منها: بلاطات فاخرة، جميلة الصنعة، ذات رسوم مِن لونٍ واحد، أو أكثر مِن لون.

تقول المراجع التاريخية، انّ جملة بَلاطات جميلة رائعة مِن صناعة بغداد،

---

(١) التصوير في الإسلام (ص٦٢).

مع مِنْبَر[٢] خشب نفيس الصَنْعَة، صُنع ببغداد أيام الخليفة هرون الرشيد، جُلبت مِن بغداد في نهاية عصر الأمير الأغلبي أبي ابراهيم أحمد، سنة ثمان وأربعين ومئتَيْن للهجرة (= ٨٦٢ م) الى مدينة القَيْروان بتونس، فوُضِعت في المسجد الجامع.

ومِن طريف ما يُرْوَى بشأن صناعة الفَخَّار والخَزَف والغَضار، في بغداد، وتفنّن أهلها يوم ذاك، ما ذكره بعض المؤرّخين، مِن أنّه في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة للهجرة، قَدِم الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السَمين الى بغداد[٣]، واحتفل الخليفة بلقائه - وهو يومئذٍ الناصر لدين الله العبّاسي -، وانّ الأمير هذا، كان ذا رأس صغير، وبطن كبير جداً يبلغ رَقَبَة بَغْلته وهو راكبها، وانّه لمّا اجتاز بمحلّة الحربية[٤] ببغداد، رآه رجل كَوَّاز، فضحك مِن هيئته، وعَمِل في ساعته كوزاً مِن طين على صورته. وعمل أهل بغداد بعده كيزاناً على هذه الصورة، وسمّوها أبا الهيجاء السمين[٥].

---

(٢) راجع البحث الموسوم بـِ «النجارة وفنون الحفر على الخشب» في كتابنا هذا.
(٣) الكامل في التاريخ (١٢: ١٢٥، حوادث سنة ٥٩٣ هـ؛ ط. بيروت ١٩٦٦).
(٤) معجم البلدان (٢: ٢٣٤ - ٢٣٥).
(٥) راجع بشأنه: حوادث سنة ٥٩٣ هـ، في: مرآة الزمان (٨: ٢٩٠)؛ والذيل على الروضتَيْن (ص ١١). وكانت وفاة هذا الأمير، سنة ٥٩٤ هـ.

صناعة العُطُور والدُهون

تَفَنَّن العراقيون بهذه الصناعة الجميلة أيّما تفنّن. فقد حَفَلت جملة بلدان عراقية بهذه الصناعة الطريفة، وذكرها الشعراء والأدباء والمؤرّخون والبلدانيون وغيرهم.

وكانت الدُهون العَطِرة في ذلك العصر، تُتَّخَذ مِن: البنفسج والخِيريّ والنِّيلَوْفَر والنَرْجِس والسَوْسَن والزَنْبق والنارَنْج والوَرْد والطَلْع والقَيْسُوم والزَّعْفَران، وغيرها كثير.

واشتهرت الكوفة بعَمَل دِهان الخِيريّ والبَنَفْسج، وخِيريّ بغداد موصوفٌ أيضاً كخِيريّ الكوفة. والخِيريّ[٢] هو المَنْثُور، وهو مِمّا أُولع الشعراء بوصفه.

واشتهر القوم ببغداد، بتركيب الخَلُوق. والخَلُوق ضَرْب مِن الطِّيب مائع، يُتَّخَذ مِن الزَعفران وغيره، وتغلُب عليه الحُمْرة والصُفْرة.

وعُني أهل بغداد باستخراج دهن الورد، ودهن البَنَفْسج. واتُّخِذ هذا الدهن في شفاء بعض الأمراض.

حُكي عن عليّ بن المهديّ[٣]، أنّه أُصيب في يومٍ شديد الحرّ، بصُداع كاد يذهب ببصره. فأُحْضِر له جماعة مِن الأطبّاء المتمهّرين، عالَجَهُ شيخهم،

(١) معناه النيليّ الأجْنحة والنيليّ الأرْياش.

(٢) وعُرِف أيضاً بـ «الخُزَامَى»، وهو القرنفل الأصفر، أو المنثور الأصفر.

(٣) المهديّ أبو عبدالله محمد بن أبي جعفر المنصور (خلافته ١٥٨ - ١٦٩ هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥ م).

حيث دَعا بدُهن بَنَفْسَج وماء وَرْد وخَلٌّ وثلج. فجعل الكلّ في آنيةٍ واختلط جميع ما فيها، وجَعَل منه وَسْط رأسه ثلاث مرّات، حتّى سَكَن عنه الصُداع وعُوفي مِمّا كان فيه.

وللغالية الصدارة بين ضروب الطِّيب. وقد جاء ذِكْرها كثيراً في المراجع العربية القديمة. وأُولع الأدباء والشعراء بذِكْر محاسنها وطِيب رائحتها.

وقد اختلف الناس في سبب تسميتها بالغالية، ولكنّهم أجمعوا على انّها مِن أُمّهات الطِّيب. وكانت خزائن الطِّيب في دُور الخلفاء والملوك والأمراء والسلاطين وأماثل الناس وأعيانهم ببغداد، عامرة بحِباب(٤) الغالية.

والغالية مِن التراكيبْ القديمة الملوكية. وصَنْعَتُها(٥) أن يُسْحَق السُّكّ والمِسْك، - والسُّكّ ضَرْبٌ مِن الطِّيب يُركَّب مِن مِسْكٍ وغيره -، ويُحَلّ العَنْبَر ويُجْعَلَ ذلك فيه، ويُسْحَقَ الكافور، ويُخْلَطَ الجميع بدُهْن ٱلبان أو دُهْن النِيلُوفَر.

قال أحد الشعراء في أجزاء الغالية:

ثلاثُ أواقٍ دُهْنُها وثلاثة مثاقيل مِسْكٍ ثمّ مِثقال عَنْبَر
وسُكٌّ فمثقالان والعُود نصفُهُ فيا حَبَّذاك الطِّيبُ للمُتَعَطّر

وفي حكاية طريفة عن غالية خلفاء بني العبّاس ببغداد. قال صافي(٦) الحُرَمِيّ مولى الخليفة المعتضد(٧) بالله: كنتُ يوماً واقفاً على رأس المعتضد، فأراد أن يَتَطَيَّب، فقال: هاتُم فلاناً الطِّيبيّ - خادم يلي خزانة الطِّيب -، فأُحْضِر. فقال له: كم عندكَ مِن الغالية؟ فقال: نَيِّفٌ وثلاثون حُبّاً صينياً مِمّا عَمِلَهُ عِدَّةٌ مِن الخلفاء. فقال: فأيُّها أَطْيَب؟ قال: ما عمِلَهُ الواثق(٨).

---

(٤) الحِباب، جَمْع الحُبّ: الجرّة الكبيرة أو الخابية. والكلمة لم تزل مستعملة في بغداد والموصل. وتُطْلَق على خابية من الفخار، توضَع على كرسي في الدار، وتُملأ بالماء، فيترشَّح منها صافياً رائقاً، قطرات، الى آنية تحت الحبّ تُسَمَّى «البوّاقة». وتُلْفَظ قافها كافاً فارسية «نشوار المحاضرة»: (١:٢٨٩، ح٣).

(٥) أنظر: المعتمد في الأدوية (ص٢٤٣).

(٦) ذَكَر المؤرّخون، انّ صافي الحُرَميّ، كان صاحب الدولة كلّها، وإليه أَمْر دار الخليفة. توفّي سنة ٢٩٨ هـ. أخباره في: نشوار المحاضرة (١:٢٨٧، ٢٨٩؛ ٨:٢١، ١٥٦)، المنتظم (٦:٣٤، ٥٤، ٧٠، ١٠٨).

(٧) خلافته: (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢م).

(٨) الواثق بالله هرون بن محمد المعتصم. خلافته: (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧م). مِن أفاضل الخلفاء العباسيين. وكان شاعراً فصيحاً، فطناً لبيباً. يَتَشَبَّه بالمأمون في تصرّفاته.

قال: أحضِرْنيه، فأحْضَرَهُ حُبّاً عظيماً يَحْمِلُهُ خَدَمٌ عِدَّةٌ بِدَهَقٍ ومِصْقَلَة.[٩] ففُتِح، فإذا الغالية قد ابيضَّت مِن التعشيب، وجَمَدَت مِن العَتْق في نهاية الذكاء، فأَعْجبتِ المعتضد، وأَهْوَى بيده الى حوالي عُنُق الحُبّ. فأَخَذَ مِن لطاخته شيئاً يسيراً مِن غير أن يُشَعِّثَ رأسَ الحُبّ، وجَعَلَهُ في لحيته،[١٠] وقال: ما تسمح نفسي بتطريق التشعيث على هذا الحُبّ، شِيلُوه[١١]. فرُفِع. ومضت الأيّام فجلس المكتفي[١٢] للشرب يوماً، وهو خليفة، وأنا قائم على رأسه. فطَلَب غالية، فاستدعى الخادم وسأَلَهُ عن الغَوالي، فأخبره بمثل ما كان أَخبر به أباه. فاستدعى غالية الواثق، فجاءه بالحُبّ بعينه. فَفُتِح، فاستطابه، وقال: أَخرجوا منه قليلاً، فأُخرج منه مقدار ثلاثين [أو أربعين] مثقالاً، فاستعمل منه في الحال ما أراده. ودَعا بعَتِيدة[١٣] له، فجعل الباقي فيها ليستعمله على الأيّام. وَوليَ المقتدر[١٤] الخلافة، وجَلَس مع الجواري يشرب يوماً، وكنتُ على رأسه، فأراد أن يَتَطَيَّب، فاستدعى الخادم وسأَلَهُ، فأخبره بمثل ما أَخبر به أباه[١٥] وأخاه[١٦]. فقال: هات الغَوَالي كلّها. فأُحْضِرَت الحِباب كلّها، فَجَعَل يُخْرِج مِن كلّ حُبٍّ مائة مثقالٍ وخمسين، وأَقَلَّ، وأَكثر، فيشمّه ويفرّقه على مَن بحَضْرَته، حتى انتهى الى حُبّ الواثق، فاستطابه، فقال: هاتُم عَتِيدة، وكانت عَتيدة المكتفي بعينها، ورأى الحُبّ ناقصاً، والعَتيدة فيها قَدَح الغالية، ما استُعْمِل منه كثير شيء. فقلتُ له: يا مولاي: انّ هذه الغالية أَطْيب الغوالي وأعتقها...»[١٧]، الى آخر الحكاية.

---

(٩) الدَهَق والمِصْقَلَة: أداة لحمل ما ينوء به الفرد الواحد: (نشوار المحاضرة ١:٢٨٩، ح٥). راجع بشأنها، ما كتبه أحمد تيمور: («مجلّة المجمع العلمي العربي» ٣[دمشق ١٩٢٣] ص١١٠ - ١١٣).

(١٠) يُقال: تَغَلّى بالغالِية وتَغَلَّف»: (الألفاظ الكتابية، ص٢٤٠).

(١١) شِيلوه: إرفعوه.

(١٢) المكتفي بالله عليّ بن المعتضد بالله: الخليفة العباسي السابع عشر. خلافته: (٢٨٩ - ٢٩٥هـ = ٩٠٢ - ٩٠٨م).

(١٣) العَتيدة: وعاء للطِّيب ونحوه.

(١٤) المقتدر بالله بن المعتضد بالله. بُويع له بالخلافة سنة ٢٩٥هـ (=٩٠٨م)، وخُلع سنة ٢٩٦هـ (=٩٠٨م). ثمّ أُعيد الى الخلافة. وخُلع ثانية سنة ٣١٧هـ (=٩٢٩م)، وأُعيد مرّة أخرى.

(١٥) يعني: المعتضد بالله.

(١٦) يعني: المكتفي بالله.

(١٧) نشوار المحاضرة (١:٢٨٩ - ٢٩١)، المنتظم (٦:٧٢ - ٧٣).

وكان القوم ببغداد، يحفظون العُطُور والدُهُون في آنية متنوّعة الأشكال. منها: النافِج[18] أو النافجة. وهو وِعاءٌ يُجْعَل فيه المِسْك. كما كانوا يحفظون ماء الورد في قوارير البِلَّوْر. قال أحدهم في وصفها:

مهندمات كالعذارى الحور منهدات القُمُص كالبِلَّوْر

واتُّخِذ القُمْقُم أيضاً لِحفْظ ماء الورد، وهو إناء صغير مِن نحاس أو فضّة أو صينيّ أو زجاج، يُجْعَل فيه ماء الورد ونحوه. يُرَشّ منه على الضيف.

وقد استظرف مَن قال في هذا:

لِقُمْقُم ماء الوَرْد أكبر مِنّة لِدَفْع ثقيل مثل قطعة جلمود
نقول له قُمْقُم فإنْ دمتَ جالساً فَعمّا قليل سوف تطرد بالعود

واتُّخذ زجاجات الزينة لحفظ العطور، وهي صغيرةٌ رقيقةٌ تُزَيّن سطحها نقوش كثيرة. وكانت تُصْنَع أحياناً من الزجاج المختلط بالرصاص، يُكْسِبها ذلك لوناً مائلاً الى الزُرْقَة أو الخضرة.

ومن الدهون التي كان يَسْتَخْرجها البغداديون يوم ذاك: دُهْن اللَّوزْ. وكان الأطباء يَتَّخذونه في علاج السِلّ. ثمّ دُهْن السُمْسُم أي السِيرَج، ودهن الخِرْوَع، الى غير ذلك مِن الدُهون والزيوت والعُطور.

واشتهر ببغداد غير مكانٍ في عَمَلِ الدُهُون والعُطور، أو بَيْعِها. وكان سوق العِطْر مشهوراً ببغداد، وهو فيما يلي باب الغَرَبة مِن دار الخلافة العباسية، بالمَشْرَعة النازلة الى شاطىء دجلة.

نالت صناعة العُطور والدُهون والطِّيب والمعاجين، ونحوها، في ديار العراق عامة، وفي مدينة بغداد خاصّة، في هاتيك الأيام، عناية كبيرة مِن أئمّة المؤلّفين والعلماء والأطباء. وقد صُنِّف في هذا الشأن، طائفة كبيرة من الكتب والرسائل، نَوَّه بها ابن النديم في «الفهرست»[19]، ككتاب الطِّيب: لابراهيم بن المهدي، وكتاب العطر: لابراهيم بن العبّاس – صاحب ديوان

---

(١٨) النافِج والنافِجة: وعاء يُجْعَل فيه المِسْك ج: النَوافِج.
(١٩) الفهرست (ص١٢٩، ١٣٦، ١٩٧، ٣٧٨).

الرسائل لجماعة مِن الخلفاء -، وكتاب العطر، وكتاب كيمياء العطر، وكلاهما للكندي، وكتاب العطر: للشطرنجي، وكتاب العطر وأجناسه: للمفضّل بن سلمة، وكتاب العطر: أُلّف ليحيى بن خالد البرمكي، وغيرها كثير. ضاع أكثرها، وسَلِم اليسير منها.

هذا غَيْض مِن فَيْض، مِن صناعة العطور والدهون ونحوها، في بغداد دار السلام، أُمّ الدنيا وسيّدة البلاد، في عصورها السالفة الزاهرة، وما بَلَغَتْهُ مِن شهرة طار خبرها في ديار المشرق والمغرب، وكان لها عظيم الأَثَر في تاريخ الحضارة العالمية الحاضرة.

فنون التصوير والتَزْويق والنَقْش

والتَدْهين والتَلْوين ونحوها

تَفَنَّن البغـداديون في العصور السالفـة، بـالتصوير والرَسْم والتزويـق والنَقْش والتدهين والتلوين وما إليها، وكانت لهم يدٌ طُولَى في إشاعة تلك الفنون الجميلة.

وهـذا الفنّ - أعني التصوير - كما يصفـه المَعْنيون بـدراستـه، والمتبحرون في دقائقه، ليس نقوشاً ورسوماً على الحيطان، وفي الكُتُب والصحف والألواح فحسب، بل تصاوير الإنسان والحيوان على الثياب والستور والخيام والآنية والمصابيح الزجاج والأثاث والسلاح والنقود والبنود والشارات، حتّى على الفاكهة.

اشتغل جمهرة من البغداديين بالتصوير والنقش والتزويق ونحو ذلك، كما اشتغلوا بغيرها من الفنون والمعارف، فكان لهم في ذلك كلّه الأثر الطيّب، على ما يُسْتَخْلَص من أخبارهم المنظومة والمنثورة. وظهر فيهم مصوّرون مُجيدون، تناثرت أخبارهم في كتب الأدب والشِعر والتاريخ والبلدان والتراجم ونحوها.

فمِن أولئك الأعلام مَن نُعِت بالمُصَوِّر، ومَن سُمّي بالدَهّان أو النقّاش أو المُزَوِّق[1] أو المُزَوِّر. وكلّهم يَعْمَل في ميدان واحد تَفَرَّقت فروعُهُ واجتمعت أُصولُهُ، هو: هذا الفنّ الجميل الذي يأخذ بالألباب.

---

(١) راجع: (مجلّة «الثقافة» القاهرة: ع٢٥٣، سنة ١٩٤٣؛ ع٣٠٢، سنة ١٩٤٤).

ولعلّ أبا الحسن عليّ بن هلال بن عبد العزيز البغداديّ، المعروف بابن البوّاب،[٢] واضع الخطّ الفائق المشهور في الآفاق، أوّل مَن سُمّي بـ «المُصوّر». فإنّ ابن البوّاب هذا، كان قبل أن يعاني الكتابة، مُصوّراً للدُور، ثمّ صوَّرَ الكتب. وكانت وفاته في سنة ٤١٣ هـ (= ١٠٢٢ م).

ومن الطريف العجيب، ما ذكره مؤرّخ بغداد: الخطيب البغداديّ،[٣] انّ بغداد صُوِّرت لملك الروم: أرضَها وأسواقها وشوارعها وقصورها وأنهارها: غَرْبيَّها وشرقيَّها، والجانب الشرقي صُوِّرت شوارعُه، فَصُوِّر شارع الميدان، وشارع سُوَيْقَة نَصْر بن مالِك مِن باب الجسر الى الثلاثة الأبواب والقصور التي فيه، والأسواق والشوارع مِن سُوَيْقَة خَضِر الى قَنْطرة البرَدان. فكان ملك الروم إذا شرب، دَعا بالصُوَر، فيشرب على مثال شارع سُوَيْقَة نَصْر، ويقول: لم أرَ صورةَ شيءٍ من الأبنية أحسن منه.

واشتهر في ميدان التدهين: عليّ بن عبد الرزّاق المعروف بابن الجوزي الدهّان، المتوفّى سنة ٦٠٨ هـ (= ١٢١١ م). كان يُزَوِّق الدُور، وكذلك والده المعروف بأبي البقاء البغدادي، كان مُزَوِّقاً دَهّاناً. ومثلُهُما المعروف بأبي الشكر البغدادي، وغيرهم.

والمُزَوِّقون كثيرون، نُسِبوا الى حِرْفة التَزْويق وتدهين الأشياء الخشب والسقوف. أشهرهم أبو عليّ الحسن بن حاتم المُزَوِّق، وعمر البَنّاء، وكلاهما مِن أهل بغداد.

والنَقّاش لمن ينقش السقوف والحيطان. وعُرِف بها غير واحدٍ مِن أهل بغداد. منهم: ابن النَقّاش البَزّاز.

هذه لمحة عن التصوير والنقش والتزويق والتدهين ونحو ذلك، مِمّا يدخل في عالَم هذا الفنّ الجميل، في بغداد، في عصورها السالفة. ولا غرو، فإنّ غير واحدٍ من أولئك الأعلام البغداديين، حملوا شُعْلَة تلكم الفنون الرائعة، الى كثيرٍ مِن ديار الشرق والغرب.

---

(٢) ترجمته وأخباره في: الأعلام (٥:٣٠ - ٣١)، معجم المؤلّفين (٧:٢٥٨)، وما ذكراه من مراجع بشأنه.
(٣) أحمد بن عليّ بن ثابت، أبو بكر (ت:٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م):

صناعة الحياكة والنَسْج

لصناعة الحياكة والنَسْج، وما يدخل في هذا الباب، الصدارة بين كثير مِن الصناعات والفنون التي اشتهرت بها بغداد في عصورها الزاهرة أيّام بني العبّاس.

وكان النُسّاجِ في العراق، ينسجون الثياب مِن القطن والحرير والصوف والكتّان، ويتفنّنون في صُنْعها، ومنها ثياب القطن الغِلاظ الصِفاق، والثوب الرقيق مِن القطن أو الكتّان، وثياب القَزّ، ومنها ما كان سُداه إبريسم ولُحْمته غير إبريسم. ومنها مِن حرير وقطن مختلفات الألوان مُخَطَّطَة. ومنها المُطَرَّزة والمُوَشَّاة. وغير ذلك مِن ضروب القماش والثياب.

وطارت شهرةُ الثوب المشهور بـِ «البغداديّ» في الآفاق شرقاً وغرباً. كان يُصْنَع ببغداد. ونَقَلَهُ الفرنسيون أيّام العصور الأواسط الى لفظة «بَلْداكين». وذلك أنّهم كانوا يُصَحِّفون اسم «بغداد» في لسانهم الى «بَلْداك» أو «بُوداك». ثمّ نسبوا إليها بقولهم «بَلْداكين».

و «البغداديّ» هذا، ثوب فاخر للغاية، يُتَّخذ للملوك والأمراء، وأعيان الناس وأماثلهم، لا يزال يُعْرَف بهذا الإسم حتّى اليوم.

قال الرحّالة الشهير البشّاري المقدسي[1]: «...وبمدينة السلام الطرائف

(١) نبغ سنة ٣٧٥هـ = ٩٨٥م.

وألوان ثياب القَزّ، وغير ذلك، وبه عبّادانيّ حسن، وسامان رفيع،... وببغداد أُزُر، وعمائم يكانكي رفيعة، ومناديل القصريَّة والبُوَيْبِيَّة... »[٢].

وعلى ذِكْر (القَزّ)[٣]، فقد اشتهرت ببغداد يوم ذاك «دار القَزّ» وكانت محلّة كبيرة، ولم تُسَمَّ بذلك إلاّ لأنّه أُقيم فيها في أوّل الأمر دارٌ واسعة لصُنْع ثياب القَزّ.

واشتهرت محلّة «العَتّابية»[٤] ببغداد، بثيابها المنسوبة إليها، وهي مِن حرير وقطن مختلفات الألوان. وكان الثوب العَتّابي[٥] معروفاً بخطوطه الممتدَّة مِن طرفٍ إلى طرفٍ آخر. وقد انتقلت هذه الصناعة الى جملة مدنٍ مِن ديار الغرب، وحاكَى أهلُها صناعة هذا الثوب.

واشتهر كـــذلـــك «الثوب المُلْحَم»[٦]: سُداه إبريسم - أي حرير أبيض -، ولحمته غير إبريسم. كان يُصْنَع في بغداد، ويُحْمَل الى الخارج.

واشتهر في التـاريـخ - خـاصـة في المئـة الخـامسة للهجرة - ثوب «السَقْـلاطُون»[٧] واللفظـة يونـانيـة (Sigillatum) . يُراد بهـا نسيـج من الحرير مخلوط بغزل الذهب. وكان ما يُعْمَل منه ببغداد، مشهور الجودة جداً، ويُضْرَب المثل به، فيُقال سَقْلاطُونيّ بغداد، وناسِجُهُ يُسَمَّى السَقْلاطُونيّ.

وهناك غير قرية من قرى بغداد، أيام بني العبّاس، اشتهرت بصناعة ضروب مِن الثياب، منها «سبَن»[٨]. نُسِبَت إليها «الثياب السَبَنيَّة» وهي

---

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص١٢٨).

(٣) معجم البلدان (٢:١٦٧، ٥٢٢؛ ٤: ٧٨٦).

(٤) من محلاّت الجانب الغربيّ مِن بغداد، دُعيت بـ «العَتّابية» نسبةً الى (عَتّاب) أحد أصحاب النبيّ(ص) وقد كان عاملاً على مكّة في عهد أبي بكر. والظاهر انّ أحفاده حَلُّوا في هذه المحلّة في زمنٍ وسكنوها». راجع بشأنها: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص٣٦٨)، معجم البلدان (٢:١٦٧، مادة «چهار سُوج»؛ و٥٢٢، مادة «دار القَزّ»)، دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً (ص١٠٥)، أسواق بغداد حتى نهاية العصر البويهي (ص٩٢، ١٧٠، ٢١٨).

(٥) للفظة «العَتّابي» خبر طويل ذكره (لسترنج) في كتابه «بغداد في عهد الخلافة العباسية» (ص١٢٢ - ١٢٣ من الترجمة العربية).
وراجع أيضاً: بلدان الخلافة الشرقية (ص١٠٩، ح٢٥: الترجمة العربية).

(٦) و(٧) رُسُوم دار الخلافة (ص٩٠).

(٨) معجم البلدان (٣:٣٥)، العقد الفريد (٣:٥).

ضربٌ مِن الثياب الكتّان أغلظ ما يكون. وقال ابن الأعرابي: الأَسْبان: المقانع الرقاق.

و«الحَظِيرة»[٩]: وهي قرية كبيرة من أعمال بغداد مِن جهة تكريت مِن ناحية دُجَيْل. كان يُنْسَج فيها «الثياب الحَظيرية»، وهي مِن الكِرْباس الصفيق، يحملها التجّار الى البلاد شرقاً وغرباً.

و«باقِدارَى»[١٠]: قُرْب أُوانا، بينها وبين بغداد أربعون ميلاً. وتُعْمَل بها ثيابٌ من القطن غِلاظٌ صِفاقٌ، يَضْرِبُ أهلُ بغداد بها المثل.

وتذكر المراجع التاريخية، انّ صناعة نَسْج الحرير، قامت في بغداد، في زمن مبكّر، وأنَّ خلفاء بني العبّاس نقلوا إليها عدداً من صُنّاع النسيج مِن تُسْتَر[١١] أعظم مدينة بخُوزِسْتان. كان يُعْمَل بها ثياب وعمائم فائقة. وَصَفَها البشّاري المقدسي[١٢] انّها «معدن كلّ حاذق في عمل الديباج والقطن».

ويَعْرِف المعنيون بهذه الشؤون، نحو عَشَر قِطَعٍ، تَرْجع الى النصف الأول مِن المئة العاشرة للميلاد، وعليها طِراز بغداد مدينة السلام.

وذكر الرحّالة الإيطالي (ماركو پولو)[١٣] في كتاباته في المئة الثالثة عشرة للميلاد، ما كان يُصْنَع ببغداد والموصل، من نسيج الحرير المُوَشَّى بالذهب.

و«محلّة التُسْتَرِيّين» ببغداد، في الجانب الغربي، بين دجلة وباب البصرة. كان يسكنها أهل تُسْتَر. وتُعْمَل بها الثياب التُسْتَرِيَّة[١٤].

ولا بدّ لنا، ونحن بصدد الثياب والنَسْج، مِن أن نشير الى «الطِراز»[١٥]. فقد أُطْلِقت هذه اللفظة على ذلك الشريط المشتمل على كتابة

---

(٩) معجم البلدان (٢:٢٩٢).

(١٠) معجم البلدان (١:٤٧٥ - ٤٧٦).

(١١) معجم البلدان (١:٨٤٧ - ٨٥٠).

(١٢) أحسن التقاسيم (ص٤٠٩).

(١٣) ١٢٥٤ - ١٣٢٣م.

(١٤) معجم البلدان (١:٨٥٠ - ٨٥١).

(١٥) الطِراز. جمعه: الطُرُز والطِرازات. معناه التطريز. ثمّ أُطْلق على الثوب المُوَشَّى، لا سيا ما كان منه مُوَشى بخطوط معترضة. وكان يلبس هذا الضرب من الثياب: الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء وذوو المناصب العالية في الدولة.
أنظر: المُعَرَّب (ص٢٢٣ - ٢٢٤)، الألفاظ الفارسية المعرَّبة (ص١١٢).

منسوجة أو مُطَرَّزَة، كما أُطْلقت على الأقمشة المزخرفة بهذه الطريقة. و «دار الطراز»[١٦]: المصانع التي تُنْتج هذه الأقمشة.

ونُسِجت بتلك المصانع التي كان بعضها مُقاماً في قصور الخلفاء أنفسهم، ثياب فاخرة مُحَلَّاةٌ بأَشْرِطة الطراز. وجرت عادة الخلفاء على خَلْع هذه الثياب، على كبار أصحاب الوظائف، مرّة على الأقلّ كلّ سنة. وتُعْتَبَر تلك الخِلع بمثابة الأوسمة والنياشين في العصور الحديثة. وكان يُنْقَش اسم الخليفة في شريط الطِراز، تسجيلاً لحكمه وسلطانه.

وفي متاحف ديار الغرب، مجموعة حسنة من الثياب التي تزيِّنُها أشرطة الطراز والزخارف الأخرى من العصر العبّاسي. وتلك الزخارف إمّا منسوجة أو مُطَرَّزَة بألوان مختلفات من الحرير. ويتضمَّن أقدم النصوص المُطَرَّزَة بالحرير، والموجودة على بعض القِطَع، تاريخ سنة اثنتين وثمانين ومائتين للهجرة. واسم الخليفة المعتضد بالله العبّاسي. وفي مدينة بوسطن قطعة من النسيج باسم الخليفة المقتدر بالله، صُنِعت في سنة عشرين وثلثمائة، في طِراز الخاصّة، في دار السلام. وقطعة أخرى في دار الآثار العربية ببغداد.

هذا عَرْضٌ موجز، لصناعة الحياكة والنَسْج ببغداد، في العصر العباسي، وما بَلَغَتْهُ مِن شهرة عالمية. وخير دليل على ذلك، ما تحدَّثت به المراجع التاريخية، انّ صناعة النَسْج، بلغت حدّاً مِن الرقّة، بحيث صار مِن الممكن سَحْب عباءةٍ أو ثوبٍ كاملٍ خلال حَلْقة خاتم.

---

(١٦) رسوم دار الخلافة (ص٢٦).

ملابس البغداديين وأزياؤهم

شأن اللباس والثياب والأزياء ببغداد، في العصر العبّاسي، شأن جدير بالعناية والدرس، لما فيه مِن الفوائد والطرائف. فقد تَعَدَّدت الأَزْياء. وكان لكلّ صِنْفٍ من الناس، زِيٌّ خاص يَتَمَيَّزُون به. فلأَهل[1] العِلْم زِيّ، وللجند[2] والقُوَّاد زِيّ، كانوا يَلْبَسُون الأَقْبِية[3] المُلَوَّنة، والمَناطِق[4] في أَوْساطهم، ويتقلَّدون السيوف، وفي أَيديهم الدَبابيس[5] والطَبَرْزِينات[6]، ونحوها مِن ضروب الأسلحة المعروفة يوم ذاك.

وللخطباء[7] زِيّ، كانوا يَلْبَسُون السَّوَاد[8] - أي جُبَّة سوداء وعمامة

---

(١) المنتظم (٧: ١٨٠).

(٢) المنتظم (٦: ١٢٦).

(٣) الأَقْبِية. جَمْع القَبَاء. ثوبٌ يُلْبَس فوق الثياب. يسمّيه أهل العراق «الزبون»، وأهل مصر والشام «القنباز».

(٤) المَناطِق. واحدتها المِنْطَقَة: ما يُشَدّ في الوسط. وتُعرف في زماننا، ولا سيا بين أفراد الجيش والشرطة بـ «النِطاق».

(٥) الدَبابيس. واحدها الدَّبُّوس: مِن آلات الحرب. يحملها الفرسان في السروج تحت أرجلهم، ويتقاتلون بها بعد التضارب بالسيوف والرماح. وتُصْنَع عادة مِن الحديد.

(٦) الطَّبَرْزِينات. واحدها الطَّبَرْزِين: ضَرْب مِن الفؤوس، كانت مِن آلات القتال القديمة. يُعْرَف عند أهل بغداد اليوم بـ «الطَبَر».

(٧) رحلة ابن جُبَيْر (ص١٩ - ٢٠، مطبعة السعادة - مصر = ص٥٠ تحقيق: دي غويه - ليدن).

(٨) «السَّوَاد»: شعار بني العبّاس. وكان أشياعهم يرتدون به، ولذلك سمّاهم التاريخ «المُسَوِّدَة» (بكسر الواو المُشَدَّدَة). أمّا بنو أميّة، فكان شعارهم البياض، وذووهم والمنتصرون لهم يُسَمَّون «المُبَيِّضَة» (بكسر الياء المشدَّدة). وأوّل ما لبس العبّاسيون السَّوَاد، حين قَتَل مروان، ابراهيم بن محمد الإمام، لبسوه حزناً عليه. فصار شعاراً لهم. وأوّل رجل لبس السَّوَاد: عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس عمّ السفّاح والمنصور.

سوداء -، ولأهل التصوّف،[٩] زيّ يتميّزون به، فكان الصوفيّ يُرى عليه جُبَّة مِن صوف وكُرْزِيَّة[١٠] ورداء مِن صوف.

ومِن طريف ما نَقَلَه أحدهم. قال: رأيتُهُ شاباً كريم الأخلاق، عليه جُبَّة مِن صوف، فقلتُ له: السلام عليكَ يا صوفيّ. فقال لي: وعليك السلام يا قطني. فقلتُ له: انّ لباس القطن مع وجود التقى لا يضرّ، ولباس الصوف مع عدم التقى لا ينفع. فقال لي: صدقتَ.[١١]

وللرهبان زِيّ. ذَكَر المؤرّخون انّ حامد[١٢] بن العبّاس وزير المقتدر بالله العبّاسي، كان قد استتر بعد أن غضب الخليفة عليه. فجاء يوماً ودَخَل دار السلطان بزِيّ الرهبان متنكّراً.[١٣]

وللحَداثة[١٤] زِيّ طريف. قال أَحَدُهم في صفة هذا الزِيّ: انّه نَظَر الى زِيّ الحَداثة مِن الجُمَّة المفرَّقَة، والرداء المُعَصْفَر، وظهور الكُحْل والسِواك، وأَثَر الحِنّاء في يَدَيْه.

وكان التاجر الغنيّ، أو الغنيّ مِن الناس، يلبس قميصَيْن ورداءً فوق السراويلات.

ولمشايخ[١٥] الكُتّاب والعلماء، زِيٌّ يتميّزون به، وهو لبْس الخُفّ والطَيْلَسان.[١٦]

---

(٩) تكملة المعجمات العربية (١:٨٥٣):
Dozy: Supplément Aux Dictionnaires Arabes (Leyde 1881).
المنتظم (١٠:١٧١ - ١٧٢).

(١٠) تكملة المعجمات العربية (٢:٤٥٥). وهي ضَرْب مِن لباس الرأس.

(١١) تكملة المعجمات العربية (٢:٣٧٧).

(١٢) كان يتولّى دائماً أعمال السَّواد. ولم يكن له خبرة بأعمال الحضرة. استوزره الخليفة المقتدر بالله سنة ٣٠٦ هـ. وكان كريماً مفضالاً متجمّلاً. قُتِل سنة ٣١١ هـ.

(١٣) رسوم دار الخلافة (ص٧٧ - ٧٨).

(١٤) تكملة المعجمات العربية (٢:٨٠٥).

(١٥) يتيمة الدهر (٣:١٩٣)، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص٤١)، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١:٢٨٦، الترجمة العربية).

(١٦) الطَيْلَسان: كساء أخضر لحمته أو سداه من صوف. يلبسه الخواصّ مِن العلماء والمشايخ والقضاة. ج: الطَيَالِسَة.

وللوزراء[١٧] زِيّ خاصّ بهم أيضاً. وزِيّ الغلمان[١٨] مشتهر، كما اشتهر زِيّ الندماء[١٩]. وكان للجواري زِيّ خاصّ بهن يتميزن به. وللرقّاصين زيّهم الخاص بهم.

وللأعراب[٢٠] زيّ يتميزون به. وكانت طوائف العُمّال[٢١] تتميّز بلباسها الخاصّ بها. وكان المُتَعطِّلون[٢٢] والمنكوبون يتميّزون بزِيٍّ خاصّ بهم. فكان واحدهم يُرَى وعليه قميصان ورداء. وللملّاحين[٢٣] في السفن بدجلة، زِيٌّ خاصّ بهم. ومثل ذلك ما كان للشُطّار[٢٤]، حتّى المكدّين[٢٥] كان لهم زيّهم الخاصّ يتميّزون به.

ولزِيّ القضاة[٢٦] الصدارة بين الأزياء في هاتيك الأيام. كما أنّ لِدَنِّيَّة القاضي النصيب الأوْفر مِن الأخبار الطريفة والنكات الظريفة.

و«الدَنِّيَّة»[٢٧]، جَمْعها الدَنِّيَّات: قَلَنْسُوَة بشكل الدَنّ - وهو «الحُبّ» عند أهل بغداد اليوم -، كان يلبسها القضاة عامة في العصور الإسلامية السالفة، كما كان يلبسها الخطباء والأكابر أحياناً.

والمشهور في التاريخ، انّ الخليفة المنصور، كان أَمَرَ أصحابه بلبس السَّوَاد والقَلانِس الطِوال، تُدْعَم بعيدان مِن داخلها، وهي الدَنِّيَّات بعَيْنها.

ولم يتعرَّض أيّ شيء الى التبدّل والتغيير، والزيادة والنقصان، قدر ما تَعَرَّضت له الأزياء في بغداد في ذلك العصر. فشاع لبس الجباب ذوات

---

(١٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١:١٤٥، وما ذكره مِن مراجع).
(١٨) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١:٢٢٩).
(١٩) الفرج بعد الشدّة: للتنوخي (٢:٤٧).
(٢٠) العقد الفريد (٢:١٤٠).
(٢١) الفرج بعد الشدّة (٢:٤٧).
(٢٢) الجزء الثامن من كتاب «التاريخ»: لهلال الصابىء. الملحق بـ«تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» (ص٤٨٤) = ذيل تجارب الأمم (ص٤٩٥).
(٢٣) الفرج بعد الشدّة (٢:١٥٣).
(٢٤) النجوم الزاهرة (٢:١٢٢).
(٢٥) الفرج بعد الشدّة (١:١٠٥).
(٢٦) صبح الأعشى (١:١٠٢، ١١٦) نقلاً عن: نشوار المحاضرة: للتنوخي.
(٢٧) راجع البحث الموسوم بـ«دَنِّيَّة القاضي في العصر العباسي» في كتابنا هذا.

الأكمام الواسعة التي لم تكن تُعْهَد من قَبْل[٢٨]. جعلوا عَرْضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك. وكانت هذه الأكمام[٢٩] تقوم مقام الجيوب، يَحْفَظ الإنسان فيها كلَّ ما يحتاج إلى حِفْظه، كالدنانير والكُتُب. وكان المهندس يضع فيه ميله، والصَيْرَفي يجعل فيها رِقاعَهُ، والخيّاط يحمل فيها الجَلَم،[٣٠] والقاضي يضع فيها الكُرَّاسة التي يقرأ فيها الخُطْبة يوم الجمعة، والكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها.

والكلام على زِيّ الظِراف، فيه كلّ ظريف طريف. فقد ذَكَر مَن عُني بشؤون تلك الطبقة مِن الناس - أي الظرفاء وذوي المروءة الأدباء -، انّهم يَلْبَسُون الغَلائل[٣١] الرِقاق، والقُمُص السِفاق مِن جيّد ضروب الكَتّان الناعمة، النقيّة الألوان، مثل الدَّبِيقي[٣٢] والجَنَّابِيّ، والمُبَطَّنات التَاخْتَج[٣٣] والخامات، ودَرارِيع[٣٤] الإسْكَنْدَراني،[٣٥] والمُلْحَم[٣٦] والخُرساني، ومُبَطَّنات القُوهيّ الرَطْب، وأُزُر القَصَب[٣٧]، والأَرْدية المُحَشّاة العَدَنيَّة، والطَيَالسَة المُلْحَم، والجِباب النَيْسابُورية، والخزوز الكوفية، والمَطَارف[٣٨] السُوسيَّة، وكلّ ما أشبه ذلك وقاربه ونادمه.

---

(٢٨) قيل إنّ أوّل مَن أحدث لبس الأكمام الواسعة: الخليفة المستعين بالله العبّاسي. خلافته ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ = ٨٦٢ - ٨٦٦ م.

(٢٩) كَتَب حبيب زَيّات مقالاً ممتعاً، بعنوان «أزياء الأكمام وما كانت تصلح له في الملابس العربية»: (مجلّة «المشرق» بيروت ١٩٤٧، ج٤، ت١ - ك١؛ ص٤٦٥ - ٤٧٦). ثمّ أعاد نشره في (الخزانة الشرقية ٤٢:٤ - ٥٣).

(٣٠) الجَلَم: آلة كالمقصّ.

(٣١) الغَلائل، جَمْع غِلاَلة - بالكسر -: ما يُلْبَس تحت الثوب وتحت الدرع أيضاً. أنظر: رسوم دار الخلافة (ص٩٦ - ٩٧)، المعجم المفصّل بأسماء الملابس العربية: الترجمة العربية، ص٢٥٩ - ٢٦٣).

(٣٢) الدَّبِيقيّ، منسوب الى دَبيق: بليدة كانت بنواحي الفرما وتنّيس مِن أعمال مصر. كانت تُصْنَع فيها هذه الثياب الدبيقية الشهيرة. تُحْمَل الى جميع البلدان.

(٣٣) التاختج: ضَرْب مِن النسيج كان يُصنَع في نَيْسَابُور. راجع: تكملة المعجمات العربية (١٣٨:١).

(٣٤) الدَرَاريع، جَمْع الدُرَّاعة: جُبَّة مشقوقة المقدَّم، تُعْمَل مِن الديباج أو الدَّبيقي أو الصوف، يلبسها الرجل، كما تلبسها المرأة. أنظر: رسوم دار الخلافة (ص٩٦)، تاج العروس (٣٢٥:٥ - ٣٢٧).

(٣٥) منسوبة الى الإسكندرية: أنظر: الأغاني (١٨٩:١٠)، خطط المقريزي (٢٦٣:١).

(٣٦) المُلْحَم مِن الثياب: ما كان سَداه إبريسم، أي حرير أبيض، ولحمته غير إبريسم.

(٣٧) رُسُوم دار الخلافة (ص٩٨).

(٣٨) الوزراء والكُتّاب (ص٢١٠)، ديوان سبط ابن التعاويذي (ص٢٣٥).

وكان الظرفاء لا يستحسنون لُبْس الثياب الشَنِعَة الألوان، المصبوغة بالطِّيب والزَعْفَران، وهم يقولون: إنّ أحسن الزيّ ما تشاكلَ وانطبق، وتَقارب واتَّفَق.

وفي هاتيك الأيّام، كان يُنْكَر دخول الرجل الى دار الخلافة العباسية ببغداد، بِنَعْلٍ أو خُفّ أحمر. لأنَّ الأحمر لباسُ الخليفة.

واتفق في يوم، أن دَخَل قاضٍ مِن جِلَّة القضاة، دارَ الخليفة، بخُفٍّ أحمر، ورآه الحاجب. فقال له: تأتي أيّها القاضي الى خليفة آبائك في العِناد والمُباينة. وتناوله مِن المكروه قَوْلاً وفِعْلاً بما أَسْرَفَ فيه. وانصرف القاضي الى داره فاحتجب فيها، ولم يخرج منها حَياءاً وكَمَداً. وكانت وفاتُهُ عُقَيْب هذه القصّة[٣٩].

* * *

هذه صُوَرٌ تُفْصِح عن ضروب الأَلْبسة والثياب والأزياء، التي كان يَتَّخذها الناس في بغداد في العصر العبّاسي. وهي تمثّل شيئاً مِن مستوى المعيشة وأسباب الحياة في بغداد القديمة.

---

(٣٩) رُسُوم دار الخلافة (ص٧٥ - ٧٦).

العمائم
رُسُوم لبْسها ونَزْعها
في
دُور الخلفاء والأمراء والسلاطين وبحضرتهم(*)

تمهيد:

قيل قديماً: العمائم تيجان العَرَب. وقد وَصَفَها أبو الأَسْوَد الدؤلي، بقوله: «جُنَّةٌ في الحرب، ومِكنَّة مِن الحرّ، ومَدْفأة مِن القرّ، ووقارٌ في النّدِيّ، وواقية مِن الأحداث، وزيادة في القامة. وهي تُعَدّ عادة مِن عادات العرب». وقال عَمْرو بن امرىء القَيْس:

يَـا مـالِ والسَّيِّـدُ المُعَمَّمُ قـد   يُبْطِرُهُ بَعْـدَ رَأيِـهِ السَّرَفُ
نَحْنُ بما عِنْدَنا وأنتَ بما عِنْـ   ـدَكَ راضٍ والرأيُ مختلِـفُ[1]

فهذا خير وَصْفٍ يصوّر لنا العمامة ومنزلتها عند العربيّ، وهو الذي يفخر بها ويَتَباهَى، ويحرص عليها حرصه على سيفه وإبله. والعرب لم يكتفوا بلبسها، بل تَعَدَّى الأمر إلى أن يستفيدوا منها مِن غير هذا الوجه، «لأنَّ العمامة ربّما جعلوها لواء، ألاَ تَرَى انّ الأَحْنف بن قَيْس يوم (مَسْعُودِ بنِ عَمْرٍ) حين عقد لِعَبْسِ بن طَلْقٍ اللواء، انّما نزع عمامته مِن رأسه، فعقدها

(*) (١) «نَزْع العمائم في دَور الخلفاء والأمراء والسلاطين وبحضرتهم». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلّة «الرسالة» ١٠[القاهرة - ٩ مارس ١٩٤٢] ع٤٥٣، ص٣١٠، ٣١١).
(٢) «العمائم: رُسُوم لبْسها ونَزْعها في دُور الخلفاء والأمراء والسلاطين وبحضرتهم». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلّة «الثقافة» ٦[القاهرة - ١٣ يونية ١٩٤٤] ع٢٨٥؛ ص٥٦٨ - ٥٧١).

(١) البيان والتبيين: للجاحظ (٣:٦٩).

له، وربّما شَدُّوا بالعمائم أوساطهم عند الجهدة وإذا طالت العقبة، ولذلك قال شاعرهم:

دُفِعْنا إليه وهو كالذِّيخِ حاظِياً   نَشُدُّ على أكْبادِنا بالعَمَائِمِ

وقال آخر:

خَلِيلَيَّ شُدُّوا لي بفَضْل عِمامَتي   على كبدٍ لم يَبْقَ إلاّ صَميمها[2]

وأخبار العمائم ممّا يطول شرحه ويعسر مناله في مقالٍ أو بَحْث، لأنّ أخبارها منثورة في كثير مِن كُتُب التراث العربي، فضلاً عن أنّ غير واحدٍ مِن المؤلِّفين الأقدمين والمحدثين، أَفرد لها كتاباً قائماً بذاته.[3]

ومرادنا هاهنا، أن نتناول رُسُوم لبْسها ونَزْعها في حضرة العظماء، وفي دُورهم ببغداد، أيّام بني العبّاس، فإنّ في ذلك طرافة أدبية وتاريخية.

* * *

١ - تحريم نَزْع العمائم في دُور العظماء وبحضرتهم:

كان مِن الرُسُوم المُتَّبَعة عند دخول الناس على الخلفاء وعلى الأمراء، وعلى السادة والعظماء، أن يدخلوا وهم مُعَمَّمِين، «لأنَّ ذلك أشبه بالإحتفال وبالتعظيم والإجلال، وأبعد من التبذّل والإسترسال، وأجدر أن يفصلوا بين أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم»[4].

ولكنّ بعض الناس، وبينهم مَن له جلالة ورياسة، كانوا يدخلون دُور

---

(٢) البيان والتبيين (٣:٧٢).

(٣) نذكر منها الكتب الآتية:
(أ) فَضْل لباس العمائم: لابن وضاح الأندلسي المالكي.
(ب) تحفة الأمّة بأحكام العمّة - أي العمامة -: لمحمد بن أحمد المعروف بابن الإمام.
(ج) درّ الغمامة في درّ الطَيْلَسان والعمامة: لأحمد بن حجر الهيثمي المكّي.
(د) شارح الشفا الثامة في صفة العمامة: للشهاب أحمد بن محمد الخفاجي.
(هـ) الدعامة في أحكام سنّة العمامة: لمحمد بن جعفر الكتاني الحسني.

(٤) البيان والتبيين (٣:٧٧).

العظماء مِن خلفاء وأمراء وسلاطين، لقضاء أشغالهم، ولم يراعوا الرسوم المُتَّبَعَة بشأن العمائم وغيرها مِن لباس الرأس، إذْ كانوا ينزعونها ظَنّاً منهم أنّ أمرهم يُغْفَل لا يَرْفَعه أصحاب[٥] الأخبار الى الخليفة، أو الى الأمير، أو الى السلطان، لكنّ الأمر جَرَى على الضدّ من ذلك، فلاقوا مِن الأمر أرذله، ومِن الإهانة أَقْبحها. فمن ذلك ما رواه محمد بن عَبْدُوس الجهشياري[٦]، قال: «وكان عيسى [بن عبدالرحمن] كاتب طاهر [بن الحسين]، لمّا دَخَل مجلس الفضل [بن سهل]، نَزَع قَلَنْسُوَته وجَعَلها الى جانبه، ثمّ فَعَل ذلك مراراً، فقال نُعَيْم بن حازم ليعقوب بن عبدالله، وكان يعقوب آلفاً لعيسى: إنّ العبّاس - يعني عيسى - إذا جَلَس في مجلس الأمير - يعني الفضل - رَفَع قَلَنْسُوَته عن رأسه، وهذا استخفاف منه بالأمير، وقد أنكره الناس وتكلّموا فيه، فأعْلمه ذلك ليمسك عنه فيما يستقبل، فإنّه إنْ عاوَدَ، دَنَوْتُ منه ورَدَدْتُها على رأسه بعنفٍ وإنكار. فقال يعقوب لعيسى ذلك. فقال له: بأيّ شيءٍ رَدَدْتَ عليه؟ قال: قلتُ له: إنّه محرورٌ، ولعلّه قد استأذن الأمير في ذلك، إنْ كان لا يَجْهَل ما يأتي ويَذَرْ. فقال: والله ما بي أنّي محرُورٌ، وما استأذنتُ، ولكنّي أريد أن يعلم الفَضْلُ أوّلاً، ثمّ مَن حوله، أنّه أَهْوَن عليَّ وأَدَقُّ في عيني ما دام صاحبي - أَعزَّه الله - حَيّاً، مِن هذه الشعرة - وقَلَع شعرة مِن عُرْف دابته - ومَن فوق نُعَيْمٍ، فضلاً عن نُعَيْمٍ، أشدّ تهيُّباً للإقدام عليَّ بشيءٍ أنكره، فلا يدْخلك مِن قولهم شيءٌ. وعَرِّف نُعَيْم بن حازم ما قلته»[٧].

ونظير هذا الخبر، ما ذكره هلال[٨] بن المُحَسِّن الصابىء، بقوله: «وحدّثني جدّي [أبو اسحق ابراهيم الصابىء] انّ المُكَنَّى أبا الهَيْثَم، حَضَر يوماً في دار عَضُد الدولة، وأَخَذ عمامته من رأسه، وَوَضَعها بين يَدَيْه، ورآه

(٥) أصحاب الأخبار: الجواسيس.
(٦) ت:٣٣١هـ = ٩٤٣م.
(٧) الوزراء والكُتّاب (ص٢٩٤، طـ.مزيك = ص٣١٠ - ٣١١، طـ.السقّا والأبياري وشلبي = ص٢٥٤ - ٢٥٥، طـ.الصاوي).
(٨) ت:٤٤٨هـ = ١٠٥٦م.

بعض أصحاب الأخبار، فكتب بما كان منه، وخرج أستاذ دار[٩]، فَحَزَق[١٠] به وشَتَمَهُ، وأَخَذَ العمامة وضَرَب بها رأسه حتّى تَقَطَّعَت قطعاً، ووكَّل به واعتقله. فسُئِل فيه عَضُد الدولة، وقيل: هذا رجل محرور الرأس، ولا يستطيع تَرْك العمامة على رأسه، وانّما فَعَل هذا لذاك، لا لجَهْل بأدب الخدمة. فبعد مراجعات ما، أمر بإطلاقه»[١١].

ثمّ ذَكَر خبراً طريفاً بهذا الشأن، في عرض كلامه على قوانين الحجابة ورُسُومها، قال فيه: «...وحدّثني ابراهيم بن هلال جَدّي، قال: حدّثني جعفر[١٢] بن وَرْقاء الشيباني، قال: كنتُ في أيّام المعتضد رحمة الله عليه، مع نظرائي مِن أولاد الأمراء والقُوَّاد، مَرْسُومين بالُمقام في الدار[١٣] على رَسْم الخِدْمة بنوائب كانت لنا، وكُنّا نجتمع في حُجْرة نستريح فيها بعد انقضاء الخِدْمة وانصراف المَوْكِب، فَنَنْزَع خفافنا، ونَضَع عمائمنا عن رؤوسنا، ونلعب بالشِّطْرَنج والنرد. فاطَّلَع علينا أحد أصحاب الأخبار في الدار، فكَتَبَ بخبرنا الى المعتضد بالله، ونحن لا نعلم. فلم يبعد أن خَرَج خادم صغير مِن خواصّ الخدم، وفي يده الفَصْل المرفوع في أمرنا، وعلى ظَهْره توقيع بخطّ المعتضد بالله رحمة الله عليه، حكايته: (يَسْتَصْفِعُونَ وما لهم مِن صافح). فسلَّمه الى خفيف السَمَرْقَنْدي الحاجب[١٤]، وصنع الله لي أن لم يكن ذلك في يوم نَوْبَتي، فحين وقف على الفصل والتوقيع، انزعج، ونهض، واستدعى مَن كان في النَوْبَة، فضَرَبَ كلّ واحدٍ منهم عدة مقارع. فما رُئي بعد ذلك إلاّ لازمٌ للتوفُّر على الخدمة، متجنّبٌ للتبذُّل»[١٥].

---

(٩) ويُقال فيها استدار واستادار واستاد الدار. وهي مركّبة من لفظَيْن: أستاذ أو استذ بمعنى «الأخذ»، ودار بمعنى «الممسك». وهو لقب مَن يتولّى قَبْض مال الخليفة أو السلطان أو الأمير، وصَرْفه. وتمثل فيه أوامره.

(١٠) ضَيَّق عليه.

(١١) رُسُوم دار الخلافة (ص٧٧).

(١٢) مِن بيت إمرة وتقدّم وآداب. اتّصل بالمقتدر باللّه. وتقلّد عدة ولايات. كان شاعراً كاتباً. مات سنة ٣٥٢ هـ.

(١٣) يعني «دار الخلافة العبّاسية ببغداد».

(١٤) مِن مشاهير الحجّاب في أيّام الخليفتين: المعتضد باللّه، والمكتفي باللّه.

(١٥) رُسُوم دار الخلافة (ص٧١ - ٧٢).

وقد روى هلال فيما نقله عن جدّه ابراهيم الصابيء، الذي خَدَم جماعة مِن الخلفاء والأمراء والسلاطين، وبرع في آداب الخدمة ورُسُومها، عدّة أخبار في هذا الباب، وكأنّه رواها لتكون موعظة بليغة وسبيلاً مُمَهَّدَة لِمَن يهمّ بالدخول على دُور هؤلاء العظماء. قال هلال: «وحدّثني ابراهيم بن هلال جَدّي، قال: حدّثني المُكَنّى أبا عليّ الحسن بن محمد الأنباريّ، قال: كنتُ أخطّ بين يَدَي دِلوَيْه[١٦] الكاتب، وهو يتولّى كتابة سَلامة أخي نُجح[١٧] المُلَقَّب في أيّام القاهر بالله بالمؤتمن، وسلامة إذ ذاك حاجب القاهر بالله، وكنتُ أجلس في دهليز باب الخاصّة[١٨] الذي يلي دجلة مِن دار السلطان، فأخدم صاحبي فيما يستخدمني فيه. فانّي لجالس متعلّق على دكّة هناك، إذْ جَعَلْتُ إحدى رجليَّ على الأخرى، وكان بازائي صديق لي من خلماء الحجّاب يَوَدُّني وُدّاً شديداً، فوثب إليَّ وضَرَب رجلي ضربةً مؤلمة بعصاً كانت في يده، فقمتُ مَذْعوراً. فقال: يا أبا عليّ، اعرف لي موضع مسامحتي إياك، ووالله لو أنّ هاهنا مَن أتَخَوَّف أن يَرْفَع الخبر، لما قدرتُ على مسامحتك. فقلتُ: وأيّ شيء أنكرتَ منّي؟ وبأيّ شيءٍ سامحتني؟ - فقال: نحن مأمورون إذا رأينا أحداً مِن الناس كلّهم، قد جَلَس في دار السلطان هذه الجِلْسَة التي جَلَسْتَها، وَوَضَع إحدى رجلَيْه على الأخرى، بأن تُجَرّ رِجْله مِن موضعه حتى نخرجه من حريم الدار. ونهاني عن المعاودة الى ذلك، وعن أن أكشف رأسي، أو أتَبَذَّل، أو أمزح، أو أرفث في شيء مِن تلك المواضع. فشكرتُهُ على ما عاملني به وأرشدني إليه»[١٩].

هذه قبضة أخبار، في جميعها مَنْعٌ وتحريم لِنَزْع العمائم بحضرة العظماء، وفي دُورهم ببغداد. ولكنّ لكلّ قاعدة شواذ. فهنالك أخبار أخرى، تنمّ على تساهل وتسامح بِنَزْع العمائم في دُور هؤلاء القوم أو بحضرتهم. ودونك ما وقفنا عليه:

---

(١٦) هو أبو محمد دِلوَيْه كاتب نَصْر القشوري الحاجب، أيام المقتدر بالله، والقاهر بالله.
(١٧) نُجح الطولوني أمير أصبهان أيام المقتدر بالله. ثم ولاّه المقتدر الكوفة فالبصرة.
(١٨) أحد أبواب دار الخلافة العباسية، من أسْفَلِها.
(١٩) رُسُوم دار الخلافة (ص٧٦ - ٧٧).

٢ - نَزْع العمائم في دُور العظماء وبحضرتهم:

لعلّ الخليفة المأمون كان أكثر الخلفاء تساهلاً في السماح لمن يغشى مجالسه، بنَزْع العمامة، ولم يكن ذلك في مجلس أُنْسِهِ فحسب، بل تَعَدَّى الأمر الى مجالسه الأخرى. فقد نَقَل لنا المسعودي[٢٠]، حكاية جاء فيها: «وكان يحيى بن أكثم، يقول: كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء ومَن يناظره من سائر أهل المقالات، أُدْخِلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انزعوا أخفافكم، وأُحضرت الموائد، فقيل لهم: أصيبوا مِن الطعام والشراب، وجدّدوا الوضوء، ومَن ضاق عليه خُفّه فلْينزعه، ومَن ثقلت عليه قَلَنْسُوَته فلْيضعها، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر، فبخّروا وتطيّبوا، ثمّ خرجوا فاستدناهم حتّى يدنون منه، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنْصفها وأَبْعدها مِن مناظرة المتجبّرين. فلا يزال كذلك الى أن تزول الشمس، وتُنْصَب المائدة ثانية، فيطعمون وينصرفون...»[٢١].

وذَكَر أبو الفرج الأصفهاني نبأً في هذا الشأن، قال فيه: «حدّثني محمد، قال: حدّثنا أبو العَيْناء، قال: حدّثنا محمد بن عَبّاد المهلّبي، قال: لما مات أبو عيسى بن الرشيد [سنة ٢٠٩ للهجرة]، دخلتُ الى المأمون وعمامتي عليَّ، فخلعتُ عمامتي ونبذتُها وراء ظهري - والخلفاء لا تُعَزَّى في العمائم -، ودَنَوْتُ. فقال لي...»[٢٢].

---

(٢٠) ت: ٣٤٦هـ = ٩٥٦م.

(٢١) مروج الذهب (٧: ٣٨ - ٣٩).

(٢٢) الأغاني (١٠: ١٩٠، ط. دار الكتب المصرية = ٩: ٩٧، بولاق = ٩: ٩٣، الساسي)، الأوراق: للصولي [أشعار أولاد الخلفاء] ٣: ٩٠).

دَنِّيَّة القاضي

في العصر العبّاسي(*)

الدَنِّيَّة وتُجمَع على الدَنِّيَّات: قَلَنْسُوَة بشكل الدَنّ - وهو «الحُبّ» عند أهل بغداد اليوم -، مُحَدَّدة الأطراف، طولها نحو شبرَيْن، تُتَّخَذ مِن ورق وفضّة على قَصَب (عيدان) وتُغَشّى بالسَّوَاد، وتُزَيَّن أحياناً بشقائق صفر طِوال، تتدلّى على الصدر. كان يلبسها القضاة عامة في العصور الإسلامية السالفة، كما كان يلبسها الخطباء والأكابر أحياناً.

قال الشريشي في شَرْح المقامة التاسعة من مقامات الحريري: إنّ أصل الدَنِّيَّة: الدَّنينة. كسفينة... وليست مِن كلام العرب، انّما هي مِن الألفاظ المستعملة في العراق... آه.

والصواب: انّ الدَّنِّيَّة عربية منسوبة الى الدنّ، وليست بالدنينة.[1]

وكان من أهمّ أحداث سنة ثلاث وخمسين ومئة للهجرة (= ٧٧٠ م)، انّ «أبا جعفر المنصور، أَمَرَ أُصحابه بلبس السَّوَاد، وقلانِس طِوال تُدْعَم بعيدان مِن داخلها، وأن يعلّقوا السيوف في المناطِق، ويكتبوا على ظهورهم (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلعَلِيمُ)[2]. فَدَخَلَ عليه أبو دُلَامة في هــذا

(*) «دَنِّيَّة القاضي في العصر العبّاسي». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلّة «الرسالة» ١٠ [القاهرة: ١٩ و٢٦ أكتوبر؛ و٣٠ نوفمبر ١٩٤٢] ع٤٨٥، ص٩٧٩ - ٩٨١؛ ع٤٨٦، ص١٠٠٦ - ١٠٠٧؛ ع٤٩١، ص١١١٠).

(١) المُساعِد (مادة: دون). وانظر: لسان العرب (١٧:١٧)، تاج العروس (٢٠٣:٩، مادة: دون)، شذرات الذهب (٢٣٤:١)، تكملة المعجمات العربية (٧٧٣:١).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٧.

الزِيّ، فقال له أبو جعفر: ما حالك؟ قال: شَرٌّ حالٍ! وَجْهي في نِصْفي، وسَيْفي في أستي، وكتاب الله وراء ظهري، وقد صَبَغْتُ بالسَّوَاد ثيابي. فضحك منه وأعفاه وحده مِن ذلك، وقال له: إيّاك أن يَسْمَع هذا منك أحَد»[3]. قال أبو الفرج الأصفهاني:[4] «ونسختُ مِن كتاب لابن النطاح، فذكر مثل هذه القصّة سواءً، وزاد فيها:

وكُنّا نُرَجَّى مِن إمامٍ زيادةً   فجادَ بطولِ زادهُ فيالقَلانِس[5]
نَراها على هام الرجالِ كأَنَّها   دِنان يهود جلّلت بالبَرَانِس[6]

والظاهر انّ هرونِ الرشيد، لم يحبّ هذا التغيير الذي أحْدَثه المنصور مِن قَبْلِه. فقد حَكَى الجاحظ، انّ العُماني الراجز «دَخَل على الرشيد لينشده شِعراً وعليه قَلَنْسُوَة طويلة وخفّ ساذج، فقال: إيّاك أن تنشدني إلاّ وعليكَ عمامة عظيمة الكور، وخُفَّان دمالقان...، فَبكَّر مِن الغد، وقد تَزَيّا بِزِيّ الأعْراب، فأنْشَدَهُ... »[7].

وكانت الدَّنِّيّات تبرز في أيّام مواكب الخلفاء ببغداد، إذْ يحضر صنوف النـاس علـى مراتبهم ورسومهم. قـال هـلال بن المُحَسِّن الصـابـىء: «وإذا اتفق يوم الموكب، حضر حاجب[8] الحُجّاب بأكمل لباسه مِن القَبَاء الأسْوَد المُوَلَّد،[9] والعمامة السوداء، والسيف والمِنْطَقَة، وقدّامه الحُجّاب وخُلَفاؤهم. وجَلَس في الدّهليز مِن وراء الستر. وحضر الوزير وأمير الجيش، ومَن له رَسْم

---

(٣) و(٤) الأغاني (٢٣٦:١٠، طـ.دار الكتب = ١١٥:٩، طـ.الساسي). وانظر: تاريخ الرسل والملوك (٣٧١:٣)، العقد الفريد (٢٢٠:٤، طـ.مصر ١٩١٣ = ٣٠٦:١، طـ.لجنة التأليف والترجمة والنشر)، معجم الأدباء (٢٢٠:٤)، الكامل في التاريخ (٤٦٧:٥)، مختصر أخبار الخلفاء، المنسوب لابن الساعي (ص١٨، بولاق)، تاريخ مختصر الدُوَل (ص٢١٣)، غُرَر الخصائص الواضحة (ص٢٠٢ بولاق).

(٥) وفي أغلب المراجع: «فزَاد الإمامُ المصطفى في القَلاَنِس».

(٦) وفي بعض المراجع: «بالأطالِسِ».

(٧) البيان والتبيين (٩٣:١)، وعيون الأخبار (٩٣:١ - ٩٤)، والعقد الفريد (١٣٩:٢ - ١٤٠). وقد ذكر صاحب «العقد»: المأمون بدلاً مِن الرشيد، في هذه الرواية.

(٨) قال ابن تغري بردي: (النجوم الزاهرة ٢٧٢:٣) في حوادث سنة ٣٢٩هـ، انّ فيها «خَلَع المتّقي [لله] على بدر الخرشني، وقلَّده الحجابة وجعله حاجب الحجّاب، ولكن لا نعلم هل كان بهذه الكيفية أو غير هذه الصورة مِن أنّه كبير الحَجَبة، ولعلّه ذلك».

(٩) المُوَلَّد: أي مُسْتَحْدَث، ولم يكن مِن استعمال القوم فيما سَبَق.

في حضور الموكب، فإذا تكامل الناس، راسَل الخليفة بذاك، فإنْ أراد أن يأذن الإذن العام، خرج الخادم الحَرَمي[١٠] الرسائلي، فاستدعى حاجب الحجّاب، ودخل وحده حتّى يقف في الصحن ويُقَبِّل الأرض، ثم يُرْسَم له إيصال القوم على منازلهم، فيخرج ويدعو وليّ العهد إنْ كان في الوقت وليّ عهد، وأولاد الخليفة، إنْ كان له ولد. ثمّ يدخل الوزير، ويمشي الحجّاب بين يَدَيْه الى أن يقرب مِن السرير، فاذا قرب تأخّروا عنه،... وأُدْخِل بعده أمير الجيش،... ثمّ أصحاب الدواوين والكُتّاب، وأوصل القُوَّاد يَقْدمُهم خلفاء الحُجَّاب على مراتبهم ودَعوهم، ووقفوا يميناً وشمالاً على رُسُومهم، ونُودي ببني هاشم ومَن يَلْبس الدَّنِّيّات، ويتقلَّد الصلوات، فيقدّمون الى أوّل البساط ويُسَلِّمون ويقفون مُفْرَدِين... »[١١].

وقد بالَغ الناس يوم ذاك، في استهزائهم بالدَنِّيّة واحتقارهم لها. فهنالك جملة روايات فيها الكثير مِن الطرافة والغرابة، بشأن الدَنِّيّة، كانت في جميعها مَدْعاةً للضحك والسخرية. فكم جَلَبَت تلك الدَنِّيّات مِن الأذى والألم لكثير من القضاة. وكم جَرَّت عليهم مِن الويلات، وكم مِن دَنِّيّة غاصت برأس صاحبها، وكم منها تَعَاوَرَتْها أيدي الصبيان والرعاع، وكم مِن قاضٍ تَرَك عمله بسببها. فلا غرو انّ هذا الملبوس الدخيل على العرب، لم يَرُق لهم، ولم تستأنس عيونهم برؤيته فوق هام القضاة. فما انفكّوا يُعَرِّضون به، ويستهجنون شكله، حتّى خَفَّ استعماله شيئاً فشيئاً، على مرّ العصور. ثمّ زال مِن الوجود منذ عَهْدٍ بعيد.

فقد روى أبو الفَرَج الأصفهاني، حكاية قال فيها: أخبرنا محمد بن خلف وكيع، قال: كان الخليجي القاضي واسمه عبد الله [بن محمد] ابن أخت علوية المغنّي، وكان تيّاهاً صلفاً، فتقلَّد في خلافة الأمين قضاء الشرقية،[١٢] فكان

---

(١٠) الحَرَميّ: الذي يجوز له دخول الحَرَم.
الرسائلي: الذي مِن شأنه إيصال الرسائل الى داخل الحَرَم. ويجوز أن ينهض لهذه الوظيفة شخص واحد.

(١١) رُسُوم دار الخلافة (ص٧٨ - ٧٩).

(١٢) الشَرْقِيَّة: «محلّة بالجانب الغربي مِن بغداد، وفيها مسجد الشرقية في شرقيّ باب البصرة. قيل لها الشرقية لأنّها شرقيّ مدينة المنصور، لا لأنّها في الجانب الشرقي»: (معجم البلدان ٣: ٢٧٩).

يجلس الى اسطوانة مِن أساطين المسجد، فيستند إليها بجميع جسده ولا يتحرّك، فإذا تَقَدَّم إليه الخصمان، أَقْبَل عليهما بجميع جسده، وترك الإستناد، حتّى يفصل بينهما، ثمّ يعود لحاله. فعمد بعض المجّان الى رقعة من الرقاع التي يكتب فيها الدعاوي، فألصَقَها في موضع دَنِّيَّته بالدِبْق وتمكّن منها. فلّما تَقَدَّم إليه الخصوم، وأَقْبَل عليهم بجميع جسده كما كان يفعل، انشكف رأسه، وبقيت الدَّنِّيّة موضعها مصلوبة ملتصقة، فقام الخليجي مغضباً، وعلم انّها حيلة وقعت عليه. فَغَطَّى رأسه بِطَيْلَسَانِهِ، وقام فانصرف وتركها مكانها، حتّى جاء بعض أعوانه فأخذها. وقال بعض شعراء ذلك العصر فيه، هذه الأبيات:

إنّ الخليجي مِن تتـــايهـــه | أثقــل بــاد لنــا بطلعتــهِ
مــا إنْ لــذي نخوة مناشبــة | بــين أخــاوينــهِ وقصعتــهِ
يصالح الخصم مَن يخاصمه | خوفــاً مِن الجور في قضيّتــهِ
لو لم تدبقه كــفّ قــابضــه | لطــار منهــا عــلى رعيّتــهِ[١٣]

ومِن أخبــار الــدَّنِّيّــة، مــا حُكِي عن قــاضٍ، كــان ببغــداد، يُعْرَف بالجذوعي، واسمه محمد بن محمد بن اسماعيل بن شَدَّاد أبو عبد اللّه الأنصاريّ (المتوفّى ببغداد، سنة ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م). حَكَى ابن الجوزي قصّة وقعت للجذوعي هذا مع غلام مِن متقدّمي غلمان المُوَفَّق[١٤]، وكان أميراً يوم ذاك، ومدار القصّة دَنِّيّة الجذوعي القاضي. قال أبو الفرج: «...فقال المعتمد:[١٥] مَن هذا؟ فقيل له: الجذوعي البصري، قال: وما إليه؟ قالوا: ليس إليه شيء، فقيل مثل هذا لا ينبغي أن يكون مصروفاً فقلّدوه واسِطاً. فقلّده

---

(١٣) الأغاني (١٠:١١٧ - ١١٨، ط. الساسي = ١٠:١٢٣، بولاق)، معجم الأدباء (١:٣٧٣ - ٣٧٤).

(١٤) هو: أبو أحمد طلحة بن المتوكّل. أدار شؤون الدولة في أيام خلافة أخيه المعتمد. حارب الزَّنج فأفناهم. توفّي بسنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١م. أخباره في: رُسُوم دار الخلافة (ص٤٩، ٥١، ٩٤)، الفخري في الآداب السلطانية والدُوَل الإسلامية (ص٤٠، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٧).

(١٥) المعتمد على الله، أبو العباس أحمد بن المتوكّل. خلافته ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ - ٨٩٢م. وبين المعتمد هذا وبين أبيه أربعة خلفاء، وهو الخامس. وفي أيّامه كانت وقائع صاحب الزنج، ووقائع يعقوب بن الليث الصفّار.

أخباره في: رُسُوم دار الخلافة (ص١٣، ٤٩، ٥١، ١٠٨، ١٣٠، ١٣١)، الفخري (ص٣٣٦، ٣٤١ - ٣٤٨).

اسماعيل[١٦] وانحدر. فاحتاج الموفَّق يوماً الى مشاورة الحاكم فيما يشاور في مثله. فقال: استدعوا القاضي، فحضر وكان قصيراً، وله دَنِّيّة طويلة، فدخل في بعض الممرات ومعه غلام له، فلقيه غلام كان للموفّق، وكان شديد التقدّم عنده، وكان مخموراً، فصادفه في مكان خالٍ مِن الممرّ، فوَضَع يده على دَنِّيَّته حتّى غاص رأسه بها، فتركه ومضى. فجلس الجذوعي في مكانه، وأقبل غلامه حتّى فتقها وأَخْرج رأسه منها، وثنى رداءه على رأسه، وعاد الى داره. وأحضر الشهود، فأمرهم بتسليم الديوان، ورُسُل الموفَّق يتردّدون، وقد سترت الحال عنه، حتى ذكر بعض الشهود لبعض الرسل الخبر، فعاد الى الموفَّق فأخبره بذلك، فأحضر صاحب الشرطة، وأمر بتجريد الغلام وحمله الى باب دار القاضي، وضَرْبه هناك أَلْف سَوْط. وكان والد هذا الغلام مِن جِلّة القُوَّاد، ومحلّه محلّ مَن لَوْ هَمَّ بالعصيان لأطاعه أكثر الجيش. فلم يقل شيئاً. وتَرَجَّل القُوَّاد وصاروا إليه، وقالوا: مرنا بأمرك. فقال: إنَّ الأمير الموفَّق أشفق عليه منّي. فمشى القُوَّاد بأسرهم مع الغلام الى باب دار الجذوعي، فدخلوا إليه وضرعوا له، فأُدخِل صاحب الشرطة والغلام، وقال له: لا تضربه، فقال: لا أقدم على خلاف الموفّق. قال: فانّي أركب إليه وأزيل ذلك عنه. فركب فَتَشَفَّع له وصفح عنه»[١٧].

وتقاذف الشعراء الدَّنِّيَّة في هجوهم. فهذا شاعر مِن أهل المئة الرابعة للهجرة، يسخر منها فيذكرها مقرونة بغراب نوح، فيقول:

كأنَّ دَنِّيَّة عليها   غراب نوح بلا جناح[١٨]

وقال آخر:

ترى قَلانسهم كالرمح طعنتها   تخفى جراحتها في جنب مغرور[١٩]

وقال الصابىء:

---

(١٦) هو: أبو الصقر اسماعيل بن بُلْبُل. استوزره الموفّق لأخيه المعتمد على الله سنة ٢٦٥ هـ. مدحه الشعراء كالبحتري وابن الرومي وغيرهما، وهجوه. قَبَض عليه المعتضد بالله في سنة ٢٧٨ هـ، وحبسه وعاقبه. ومات في محبسه، واستصفى أمواله.

(١٧) المنتظم (٦: ٤٩).

(١٨) و(١٩) محاضرات الراغب الأصفهاني (١: ١٢٩).

وفوقـــــــه دَنِّيَّـــــــة تـــذهـــب طَوْراً وتجي[٢٠]

وهذا آخر يحثّ مُتَحكِّم على إعطاء رشوة الى قاضٍ:

يا خليلي يا أبا الغيث درّك نصب القاضي لكَ اليوم شرك
طلب البرطيل فابذلهُ لهُ يسكت القاضي وإلاّ ذكرك
لا يهولنـــــــك دَنِّيَّتــــــه أعطه مِن رشوة ما حضرك[٢١]

وكانت بعض النساء يفزعْن مِن رؤية القاضي بِدَنِّيّته ولحيته الطويلتَيْن. فقد ذكر (متز) نقلاً عن (الذهبي) أنّه «كان ببغداد في سنة ٣٦٨ للهجره، قاضٍ يُعْرَف بأحمد بن سيَّار، وكانت له هيئة وجثّة مهولة [كذا، والصواب: هائلة]. ولحية طويلة، فقدم إليه إمرأتان، ادَّعتْ إحداهما على الأخرى. فقال: ما تقولين في دعواها؟ قالت: أفزع؛ أَيَّد الله القاضي. قال: ماذا؟ قالت: لحية طولها ذراع، ووجه طوله ذراع، ودَنِّيَّة طولها ذراع، فأَخذتني هيبتها. فَوَضَعَ القاضي دَنِّيَّته، وغَطَّى بِكُمِّهِ لحيته، وقال: قد نَقصْتكِ [كذا، والصواب: نَقَصْتُ منكِ] ذراعَيْن. أَجيبيني عن دَعْوتها»[٢٢].

والظاهر انّ الدَّنِّيّات كان قد ضعف شأنها، وقَلَّ استعمالها في بغداد في المئة الخامسة للهجرة. فقد أشار الى ذلك هلال بن المُحَسِّن الصابىء، في عرض كلامه على (جُلُوس الخلفاء وما يلبسونه في المواكب، وما يلبسه الدَّاخلون عليهم مِن الخواصّ وجميع الطوائف). قال: «...فأمّا العباسيون مِن أرباب المراتِب، فَزِيُّهم السَّواد بالأَقْبِيَة المُوَلَّدة والخِفاف. ولهم مَنَازِل في شَدّ المَناطِق والسيوف وتقلّدها، اللهمّ إلاَّ أن يكون منهم مَن قد ارتسم بالقضاء، فله أن يلبس الطَّيْلَسَان. وأمّا قضاة الحضرة ومَن أُهِّل للسَّواد مِن قضاة الأمصار والبلاد، فبالقُمُص والطَيَالِسَة والدَّنِّيّات والقَرَاقِفَات[٢٣]، وقد

---

(٢٠) شرح مقامات الحريري للشريشي (١٠٨:١).

(٢١) محاضرات الراغب الأصفهاني (١٢٥:١).

(٢٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٣١٣:١، الترجمة العربية)، نَقْلاً عن «تاريخ الإسلام» للذهبي، في (مجلّة الجمعية الآسوية الملوكية:
(Jras 1911. P. 669, Note 1.

(٢٣) القَرَاقِفات، جَمْع قَرَاقِف. وقَرَاقِف جَمْع قَرْقَفَة: قلانس مستديرة ضخمة. كان يلبسها الفقهاء والقضاة في رؤوسهم، أيّام العبّاسيين.

تُرِكَت الدَّنّيّات والقَرَاقِفات في زمـاننـا ، وعُـدِل الى العمائم السُّود المصقولة . . . »[٢٤] .

فلا غرو ، انّ هذا الملبوس الغريب الشكل ، لم يرق لأهل بغداد ، ولم تستأنس عيونهم برؤيته فوق هام القضاة ، فما انفكّوا يعرّضون به ويستهجنون شكله ، حتّى خَفَّ استعماله شيئاً فشيئاً على مرّ العصور ، ثمّ زال مِن الوجود منذ عهد بعيد .

(٢٤) رُسُوم دار الخلافة (ص٩١).

ميزانية بغداد قَبْل ألْفٍ ومئة سنة

•

الميزانيـة في وقتنـا الحـاضر، كـان يُطْلَـق عليهـا في العصور السالفـة «العَمَل». ومِن تلكم «الأعمال»: اثنان، يرتقي تاريخهما الى صدر الدولة العباسية ببغداد. لها أهمية بالغة في عالَم المال والإقتصاد مِن دَخْلٍ وخَرْج.

يتناول «العَمَل» الأول[١]، ما كان يُنْفِقُه بيت المال ببغداد، في السنوات الأولى مِن خلافة المعتضد بالله العبّاسي، في حدود سنة ثمانين ومائتين للهجرة. وقد عُيِّن فيه مقدار المال اللازم لكل فئة مِن فئات الموظفين الذين تُدْفَع رواتبهم من بيت المال. وجملة ذلك نحوٌ مِن مليوني دينار ونصف المليون، تُدْفَع مياومةً، باعتبار كلّ يومٍ نحو سبعة آلاف دينار. تُفَرَّق في الجند، وموظّفي الدواوين، ونفقات متنوّعة. وخلاصة ما جاء في هذا «العَمَل» على هذه الصورة:

أرزاق أصحاب النَوْبة[٢] مِن الرَجّالة ومَن برَسْمهم مِن البَوّابين، ومَن يجري مجراهم: في اليوم: ألف دينار.

منها سبعمائة دينار: للبيضان، وثلثمائة: للسودان. وأكثرهم مماليك الخلفاء، ومِن رَسْمِهم أن ينوبوا في مصافّ باب الخاصَّة وحوالي قصر الخلافة.

أرزاق الغِلْمان الذين عَتَقَهُم الناصر، وهو الموفَّق بن المتوكّل، ويُعْرَفون

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص١١ - ٢٢).
(٢) النَوْبة: جماعة مِن الناس، اسم مِن المُناوَبة.

بالغِلمان الخاصَّة. كان إذا وَقَع سَفَرٌ قريبٌ أو بعيد، أُمِرَ جميعهم بالملازمة الدائمة في المِضْرَب والموكب: ألف دينار في اليوم.

أرزاق المختارين، وهم حَرَسٌ انتخبهم الخليفة مِن كلّ قيادة، وكان عَرَفَهم بالشهامة والشجاعة، واستخلصهم لمواكبه، وملازمة داره، والدخول في أوقات جلوسه، والمُقام مِن أوّل النهار الى آخره: ستمائة دينار.

أرزاق الفُرْسان المُثْبَتِين في أيّام الناصر: خمسمائة دينار.

أرزاق سبعة عشر صنفاً مِن المرسومين بخدمة دار الخلافة، والرسائل الخاصَّة، والقُرّاء، وأصحاب الأخبار، والمؤذّنين، والمنجّمين، والأنصار، والحَرَس، وأصحاب الأَعْلام، والبوقيين، والمخرّفين، والمضحكين، والطَبَّالين، وغيرهم: مئة وعشرة دنانير.

أرزاق مَن بِرَسْم الشرطة بمدينة السلام، والخلفاء عليهم، وأصحاب الأرباع، والمصالح، والأعوان، والسجّانين، وأصحاب الطَوْف، والمآصِريين،[٣] وغيرهم: خمسون ديناراً في اليوم.

أثمان أنْزال الغِلْمان المماليك وغيرهم: ثلثمائة دينار في اليوم.

نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز، وأنزال الحُرَم والحَشَم، ومخابز السودان: ثلثمائة وثلاثةٌ وثلاثون ديناراً وثُلث.

ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة وآلاته، ونفقات خزائن الكُسْوَة، والخِلَع، والطِّيب، وحوائج الوضوء، والحمَّام، ونفقات خزائن السلاح، وما يُرَمّ مِن الجواشن والدُروع، ويُتَّخَذ مِن النشّاب والأعلام والمطارد، ونفقات خزانة السُّروج، وما يُجَدَّد منها ويُصْلَح. ونفقات خزائن الفَرْش، وثمن الخَيْش[٤]، والحُصْر والستائر، والسُرادِقات، وأجور الحمّالين والأعوان للسرير، وغير ذلك على ما ثَبَت مِن تفصيله في ديوان النفقات: ليومٍ: مائة دينار.

---

(٣) هم الذين يأخذون المُكوس على البضائع التي تُحْمَل في السفن. راجع كتاب «المآصِر في بلاد الروم والإسلام». تأليف: ميخائيل عوّاد. بغداد ١٩٤٨.

(٤) وَرَد ذِكْره في البحث الموسوم بـِ «التبريد الصناعي للبيوت» في كتابنا هذا.

أرزاق السَقّائين بالقِرَب في القَصْر والخزائن والمطابخ والدُور والحُجَر والخَدَم، ومَن يعمل بالرَوَايا على البغال مِن الإصطبلات للحُرَم والبَوّابين في دار العامّة: أربعة دنانير.

أرزاق الخاصَّة ومَن يجري مجراهم مِن الغلمان والمماليك دون الأكابر الأحرار، ومَن أُضيف إليهم مِن الحَشَم القدماء: مئة وسبعة وستّون ديناراً.

أرزاق الحَشَم مِن المستخدمين في شراب العامة، وخزائن الكُسْوَة، والصُنّاع مِن الصاغة، والخيّاطين، والقَصّارين، والأساكفة، والحدّادين، والرَفّائين، والفَرّائين، والمُطَرِّزين، والنَجّادين، والوَرّاقين، والعَطّارين، والمُشَهِّرين، والنَجّارين، والخَرّاطين، والأسفاطيين، وغيرهم، ومَن في خزانة السِّلاح مِن الخُزّان والصُنّاع، وفي خزانة السُروج مَن مثلِ ذلك: ليوم: مئة دينار.

أرزاق الحُرَم: مئة دينار.

ثمن عُلوفة الكُراع[٥] في الإصطبلات الخمسة، وثمن كُسْوَة الدواب وآلاتها وأدويتها وعلاجاتها، وأجور الساسة والرّاضة والبياطرة وغيرهم: أربع مئة دينار.

ما يُصْرَف في ثمن الكُراع، والإبل، وما يُبْتاع مِن الخيل الموصوفة في أَحياء العرب ويُسْتَبْدَل به إذا عَطِب في العَمَل: ستةٌ وستّون ديناراً وثلثا دينار.

أرزاق المُطَبّخيين:: ثلاثون ديناراً.

أرزاق الفَرّاشين، والمجلسيّين، وخُزّان الفَرْش، وخُزّان الشَمْع، وأجرة الأعْوان والحمّالين فيها: مئة دينار وثلاثون ديناراً.

ثَمَن الشَمْع والزَيْت ليومٍ: ستة دنانير وثلثا دينار.

أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسُرُوج ومَن يَخْدُم في دوابّ البريد: خمسة دنانير.

---

(٥) الكُراع: اسم يجمع الخيل نفسها، وقيل: الكُراع: الخيل والبغال والحمير والأبقار والأغنام.

أرزاق الجلساء، وأكابر المُلْهين، ومَن كان يجري مجراهم: أربعة وأربعون ديناراً وثُلث.

أرزاق جماعة مِن المتطبّبين وتلامذتهم الملازمين، مع ثلاثين ديناراً لثمن الأدوية في خزانةٍ تكون في القصر: ثلاثةٌ وعشرون ديناراً وثُلث.

أرزاق أصحاب الصَيْد مِن البازياريّين، والفَهّادين، والكلابزيّين، والصَقَّارين، والصَيَّادين، وثمن الطُعْم والعلاج للجوارح، وأصحاب الجِراب، والسَبَّاعين، وأصحاب الشباك واللبابيد: سبعون ديناراً.

أرزاق الملاَّحين في الطَيّارات والشَذَآءات والسُّمَيْرِيّات، والحَرَّاقات، والزَلّالات، وزواريق المعابِر، ونحوها مِن سُفُن النهر: ستة عشر ديناراً وثلثا دينار.

الصَّدَقَة التي تُحْضَر في كلّ يوم عند صلاة الصُبْح، في قطعة قماشٍ سوداء، تُفَرَّق على مَن في قَصْر الرُّصافة مِن الحُرَم المحتاجات: خمسة عشر ديناراً.

ثمن النِفْط والمشاقة للنَفَّاطات والمشاعل، وأجرة الرجال في خدمتها: أربعة دنانير.

جاري أولاد المتوكّل على الله وأولادهم رجالاً ونساءً: ثلاثةٌ وثلاثون ديناراً وثلث دينار.

جاري وُلْد الواثق والمهتدي بالله والمستعين، وسائر أولاد الخلفاء، ومَن في قَصْر أمّ حبيب: ستة عشر ديناراً وثُلثا دينار.

جاري وُلْد الناصِر: ستة عشر ديناراً وثُلثا دينار.

أرزاق مشايخ الهاشميين، وأصحاب المراتب والخطباء في المساجد الجامعة بمدينة السلام: عشرون ديناراً.

جاري جمهور بني هاشم من العباسيين والطالبيين: ثلاثةٌ وثلاثون ديناراً وثُلث.

أرزاق عُبَيْد اللّه بن سليمان - الوزير - مع خمسمائة دينار للقاسم ابنه

بِرَسْم العَرْض بالحَضْرة في الشهر، وكتابة القائد بَدْر على الجيش: ثلاثة وثلاثون ديناراً وثُلْث.

أرزاق أكابر الكُتّاب، وأصحاب الدواوين، والخُزّان، والبَوّابين، والمديرين، والأعوان، وسائر مَن في الدواوين، وثمن الصُحُف والقراطيس، والكاغد، سوى كُتَّاب دواوين الإعطاء وخلفائهم، وخُزّان بيت المال: مئة وستة وخمسون ديناراً وثُلْثان.

جاري اسحاق [بن ابراهيم] القاضي، وخليفته [يوسف بن يعقوب] وعَشَر نفر مِن الفقهاء: ستة عشر ديناراً وثُلْثا دينار.

جاري المؤذِّنين في المسجدَيْن الجامعَيْن، والمكبِّرين، والقُوّام، والأئمة، والبَوّابين، وثمن الزيت للمصابيح، والحُصْر، والبَوَاري، والماء، والخَلُوق[٦]، وثمن الستائر في الصيف، والحِباب، والخَزف، والعمارة في شهر رمضان: ثلاثة دنانير وثُلْث.

نفقات السجون، وثمن أقوات المحبَّسين، ومائهم، وسائر مؤنهم: خمسون ديناراً.

نفقات الجسرَيْن، وثمن ما يُبْدَل مِن سفنها، والقُلُوس[٧]، وأرزاق الجَسّارين عشرة دنانير.

نفقات البِيمارَسْتان الصّاعِدي، وأرزاق المتطبّبين والكَحّالين[٨]، ومَن يَخْدُم المغلوبين على عقولهم،[٩] والبَوّابين، والخَبّازين، وغيرهم، وأثْمان الطعام والأدوية، والأَشْرِبة: خمسة عشر ديناراً.

فمجموع النفقة نحو سبعة آلاف دينار كلّ يوم.

* * *

---

(٦) الخَلُوق (بفتح الخاء وضمّ اللام): ضَرْب مِن الطِّيب، يُتَّخَذ مِن الزعفران وغيره، وتغلب عليه الحمرة والصفرة (تاج العروس ٦:٣٣٧).

(٧) القُلُوس. واحدها القَلْس (بفتح القاف وتُكْسَر أيضاً وإسكان اللام): حَبْل ضخم مِن لِيف أو مِن خُوص. للسفينة ونحوها.

(٨) هم أطباء العيون.

(٩) أي المجانين.

أمّا «العَمَل» الثاني، فقد عُني بوَضْعه عليّ بن عيسى الوزير، في سنة ستٍّ وثلثمائة للهجرة، ذَكَر فيه نفقات الدولة العبّاسية يوم ذاك.

وكان قد فَضَّل الخَرْج الذي جَمَعَهُ على الدَخْل الذي صَدَّره، بنحو مِلْيون ونصف المِليون من الدنانير، بقيت في خزانة الدولة.

وكانت جملة «العَمَل» هذا معقودة على:

أربعة عشر ألف ألف وثمانمائة ألْف وتسعة وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين ديناراً. أي نحو مليونين ونصف المليون مِن الدنانير العباسية.

فممّا أورده في جملة الخَرْج والنفقات الخاصّة، ما حكايته:

مِن ذلك للأتراك في المطابخ الخاصَّة والعامّة، وما يُقام خارج الدار، وعلوفة الكُراع والطير والوحش[10]، على ما استقرّ عليه الأمر في أصول الإقامات والأسفار على المقاطعات مُياومات ومشاهرات:

لشهر: أربعةوأربعين ألفاً وسبعين ديناراً.

ولاثني عشر شهراً: خمسمائة ألف وثمانية وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين ديناراً.

ومن ذلك الجاري بِرَسْم المشاهرة للسيّدة[11] أيّدها الله، والأمراء أعزّهم الله، والحُرَم صانهن الله، والخدم:

لشهر: أحد وستين ألفاً وتسعمائة وثلاثين ديناراً.

ولاثني عشر شهراً: سبعمائة ألف وثلاثة وأربعين ألفاً ومائة وستة وتسعين ديناراً[12].

ومِن ذلك أجرة ساسة الكُراع في سائر الإصطبلات، وأرزاق المُرْتَزِقة[13] فيه، وثمن العلاج، وجاري مَن بَرَسْم خزائن السّروج، وما يجري مجرى ذلك على ما استقرّ عليه الأمر مما يقبض في كلّ سبعة وثلاثين يوماً:

---

(١٠) يعني ما يضمّه الحَيْر بدار الخلافة العباسية ببغداد، مِن الحيوان.

(١١) هي أمّ الخليفة المقتدر بالله العبّاسي. واسمها «شغب».

(١٢) إنّ حاصل ضَرْب ما لشهرٍ واحد باثني عشر شهراً، لا يتّفق وما هو مذكور هاهنا. ولعلّ مرجع هذا الإختلاف، الى كون أيام الشهور غير متساوية.

(١٣) هم الجنود النظاميون الذين يخدمون الدولة بالأجرة، ويُفرض لهم العطاء مِن بيت المال.

لشهر: ثمانية آلاف ومائتي دينار.

وقسط ثلاثين يوماً: مئتا ألف ومائة وثمانون ديناراً.

ولاثني عشر شهراً: تسعة وسبعين ألفاً وسبعمائة وستة وسبعين ديناراً.

ومِن ذلك ما يُطْلَق مِن الجاري في كلّ شهر أيّامه أربعون يوماً للرجال في شَذاة[١٤] الخاصّة، وأربع شذاءات مرتبطة بالحضرة:

مائة دينار قسط ثلاثين يوماً وديناران.

ولاثني عشر شهراً: ألف ومائتان وثمانون ديناراً.

ومِن ذلك ما يُطْلَق في كلّ شهر أيّامه خمسة وأربعون يوماً، لأرزاق الجُلَساء ومَن يجري مجراهم:

خمسمائة وثلاثة آلاف وثمانمائة وأحد عشر ديناراً.

قسط ثلاثين يوماً: مائة وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسمائة وسبعون ديناراً.

ولاثني عشر شهراً: مائتي ألف واثنين وثلاثين ألفاً وثلثمائة وخمسة عشر ديناراً.

ومِن ذلك النفقات التي تُطْلَق دائماً في كل سنة لثمن الجوارح وكسوة الكُراع وهناء[١٥] الإبل، وكسوة المحتسبين في الدار، والطَبّالين[١٦]، وعلوفة الغنم السَوادِية[١٧]، وصِلات الأئمة، وثمن النعاج والبقر الحبشية[١٨] وعلوفتها، وصِلَة الفَرّاشين بسبب القَلَنْداس[١٩]، والنفقة على سِماطَي العِيدَيْن[٢٠]، وثمن

(١٤) الشَذاة: ضَرْبٍ مِن سفن النهر الصغيرة. جمعها: شَذآءات.

(١٥) هَناء الإبل: دهن الإبل بالنفط أو القطران ونحوهما، مِن مشاعرها، أي المواضع التي يسرع إليها الجرب مِن الآباط والأرفاغ ونحوها.

(١٦) هم المكلّفون بضَرْب الطبل في دار الخليفة في أوقات الصلوات الخمس.

(١٧) السَوَادية: نسبة الى السَّواد، وهو جنوبي العراق بنوع خاصّ. وهي أحسن الغنم لشعرها الذي يُتَّخَذ منه أفخر الزلالي والبسط.

(١٨) ضَرْب مِن البقر، كثيرة اللبن، تُنْسَب الى بلاد الحبشة. وقد أجاد المسعودي في وَصْفها، حين كلامه على بلاد الحبشة: (مروج الذهب ٣:٢٦ - ٢٨).

(١٩) القَلَنْدَاس: مِن أعياد النصارى. ويُعْرَف اليوم بعيد رأس السنة الميلادية أو بعيد الخِتَانَة. واللفظة لاتينية (Calendae). وقد وردت أيضاً بصورة القَلَنْدَس والقالَنْدَس. قال البيروني: (الآثار الباقية، ص٢٩٢ - ٢٩٤): «...فيه يجتمع صبيان النصارى ويطوفون في بيوتهم، ويخرجون مِن دار الى أخرى ويقولون قالندس قالندس، بصوت عالٍ ولحن، فيطعمون في كلّ دار ويسقون أقداحاً مِن الشراب...». راجع بشأنه أيضاً: مروج الذهب (٣:٤٠٦ - ٤١٢)، أحسن التقاسيم (ص١٨٢ - ١٨٣)، عجائب المخلوقات (ص٧٦).

(٢٠) أي ما يُهيّأ مِن الأطعمة في دار الخلافة العباسية ببغداد، في عيد الفطر، وعيد الأضحى.

الأضاحي والثلج[٢١]، وما يُطْلَق لصاحب الشرطة لحَمْل الأعلام في العيدَيْن. وثمن الرطاب والقصيل، وثمن سُروج الوَهَّاقين[٢٢]، وثمن القُلُوس للمأصِر الأَسْفَل، وثمن الكَمْأة المُقَدَّدَة:

اثنين وأربعين ألفاً وسبعة دنانير.

ومن ذلك ما يُطْلَق في كلّ شهر أيّامه خمسون يوماً لجاري الغلمان الحُجْرِيَّة،[٢٣] وأولاد المُتَشَهّدين والمَوْكبية[٢٤] في ناحية شفيع[٢٥]، والصنّاع في خزائن الكسوة، وخزائن السلاح، وخزائن الفَرْش:

سبعة وثلاثين ألفاً وستمائة وأربعة دنانير.

قسط ثلاثين يوماً: أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وستّون ديناراً.

ولإثني عشر شهراً: مائتا ألف وأَحَد وسبعين ألفاً وخمسمائة وعشرين ديناراً.

ومِن ذلك ما قدّر انفاق أمير المؤمنين، أعزّه الله، في الجوائز والهبات، بقسط شهر مِن ثلاثة أشهر جَمَع ذلك فيها: أحد وعشرين ألْف دينار.

ولإثني عشر شهراً: مائتي ألف واثنين وخمسين ألف دينار.

ومِن ذلك ما يُقام لأمير المؤمنين أيَّده الله، مِن الكسوة والفَرْش في

---

(٢١) بشأن «الثلج»: راجع بحثَيْنا الوارديْن في هذا الكتاب:
«التبريد الصناعي للبيوت».
«تبريد الماء بالثلج».

(٢٢) الوَهْق (بفتح الواو وإسكان الهاء أو فَتْحها): حَبْل يُفْتح فيه عين واسعة تُؤخَذ بها الدابّة.

(٢٣) قال هلال الصابيء: «فأمّا مماليك المعتضد بالله، فإنّه رتّب أمرهم على المقام في القصر والحُجَر، تحت مراعاة الخدم الأستاذين، وسمّاهم الحُجْريَّة. ومنعهم مِن الخروج والركوب إلاّ مع خلفاء الأستاذين»: (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص١٢ - ١٣).

(٢٤) الموكبية: الذين يرافقون موكب الخليفة، أو غيره.

(٢٥) لعلّه يقصد «دار شفيع اللؤلؤي» - وشفيع هذا: خادم المقتدر بالله وصاحب الشرطة. وكانت داره في شارع دار الرقيق في الجانب الغربي مِن بغداد في مشرعة القصب على دجلة. أو يقصد «الشفيعي» مِن نواحي بغداد، المشتهرة يوم ذاك.

الطُرُز[٢٦] بالأهْواز، وتُسْتَر[٢٧]، وجَهْرَم[٢٨]، ودارأبْجِرد[٢٩] :

ثمانمائة وأربعة عشر ألف دينار.

ومِن ذلك ما قُدِّر لحوادث النفقات:

لشهرٍ: ستة عشر ألفاً وخمسمائة وثلاثين ديناراً.

ولإثني عشر شهراً: مائة ألف وثمانية وسبعين ألفاً وتسعمائة وأربعين ديناراً.

ومِن ذلك ما ينفق على البناء والمرمّات:

أحد وخمسين ألفاً ومائة دينار.

ومِن ذلك مِن الشعير المحمول من النواحي لقضيم الكراع ومبلغه:

ستة عشر ألفاً وثمانمائة وخمسة وخمسين ديناراً.

مع أجرة محمله:

ثلاثة وثلاثين ألفاً وتسعمائة دينار.

فذلك:

ألفا ألْفٍ وخمسمائة ألْفٍ وستّون ألْفاً وتسعمائة وستين ديناراً.

وكان عليّ[٣٠] بن عيسى، فَضَّل الخَرْج الذي جَمَعَهُ على الدَخْل الذي صَدَّره[٣١] :

---

(٢٦) الطُرُز، والطِرازات، جَمْع الطِراز. وهو هاهنا: الموضع الذي تُنْسَج فيه الثياب الجيّدة. وهو مُعَرَّب. راجع: مقدّمة ابن خلدون (ص١٢٩ - ١٣٠، بولاق = ص٤٧٧ - ٤٧٨، ط.دار الكتاب اللبناني - بيروت). وسُمّي الطِراز في عهد المغول في العراق «الكارخانه». ولا يزال معروفاً عندنا ببغداد، بـ«الكارخانة».

(٢٧) تُسْتَر: أعظم مدينة في إقليم خوزستان. كان يُعْمَل بها ثياب وعمائم فائقة: (معجم البلدان ١: ٨٤٩). قال ابن حوقل: (صورة الأرض، ص٢٥٦): «يكون بتُسْتَر لجميع مَن مَلَك العراق طِراز وصاحب يستعمل له ما يشتهيه».

(٢٨) جَهْرَم: مدينة بفارس، يُعْمَل فيها بُسُط فاخرة. قال ابن حوقل: «...وبها غير طِراز للتجّار. وكان للسلطان بها صاحب يستعمل له»: (صورة الأرض، ص٢٦٨).

(٢٩) المشهور «دَرابَجِرْد»: كورة بفارس. وقصبتها على اسمها. يرتفع منها ثياب كالطبري للفَرْش تُسْتَحسَن.

(٣٠) مِن أشهر وزراء الدولة العباسية. تولّى الوزارة في أيّام المقتدر بالله، والقاهر بالله. توفّي سنة ٣٣٤هـ = ٩٤٥م.

(٣١) قال عليّ بن عيسى: إنّ «ما استغللتُهُ مِن الضياع، وَوَفَّرْتُهُ مِن أرزاق مَن يستغنى عنه، تَمَّمْتُ به عَجْزاً أدخل في الخَرْج حتّى اعتدلت الحال. ولم أمدد يدي الى بيت مال الخاصّة»: (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص٢٩١ و٢٨١).

بألف ألف وأربعمائة ألف وستة وثلاثين ألفاً وأربعمائة وستة وسبعين درهماً. وذاك كان غرضه الذي رماه ومقصده الذي نحاه[٣٢].

هذه صُورٌ تُفْصِح عمّا كانت عليه حال الميزانية لدى الدولة العباسية ببغداد، قبل ألف ومئة سنة. ويستطيع المرء أن يَقِف مِن ثناياها على شؤون أخرى كثـــيرة، كمستوى المعيشة وأسبـــاب الحيـــاة يوم ذاك، وضروب الصناعات، وطبقات الناس وأصنافهم، ومراتب الجند، ونحو ذلك.

---

(٣٢) رُسُوم دار الخلافة (ص٢١ - ٢٧).

صُوَرٌ مِن مستوى المعيشة

مِن المفيد جداً، ومِن الطريف أيضاً، أن يعرف ابن بغداد، اليوم، كم كانت ميزانية عائلة بغدادية قبل أَلْف سنة مثلاً، وكم كان يكفيها في السنة مِن دراهم. وكذلك الثروة التي تبلغ سبعمائة دينار - مثلاً -، كانت تُعْتَبَر يوم ذاك، ثروة غير قليلة يُحْسَد صاحبها عليها. وكيف كان مثل هذا المبلغ يُوَزَّع بين مرافق الحياة وسُبُلها، لعائلة عراقية بغدادية.

وفي رواية عن رجل قال لصاحبه، يا هذا: كم يكفيك في السنة؟ قال: ثلثمائة درهم تكفي لمعيشتنا أنا وزوجتي، طول السنة.

وكذلك الإطلاع على هندسة البناء وطرازاته[1]، وطُرُق بناء الدُور عند أهل بغداد في هاتيك العصور، وكيف كانوا يكثرون مِن مرافق الدُور، ويُغالون في تنظيمها، لتكون مريحةً صيفاً وشتاءً، وسُبُل التبريد[2] والتدفئة والتهوية، وكيف كانت الغُرَف تُؤثَّث وتُفْرَش.

كانت الدُور تُبْنَى عامةً في بغداد، على نَمَط واحد، إذْ يَصِل بين الدار وبين الشارع أو الدَرْب، دهليزٌ مسقوف يفضي الى صَحْنٍ واسع ذي زوايا قائمة، يَبْلُغُ عَرْضُهُ ثلثي طوله في العادة، وَيتَّصِل به مِن جانب العَرْض، القاعة الكبرى، وفي أركانها غُرَف صغار، ويُحيط بالصَحْن أيضاً غُرَف

---

(١) راجع البحث الموسوم بـ «هندسة البناء» في كتابنا هذا.

(٢) راجع البحث الموسوم بـ «التبريد الصناعي للبيوت» في كتابنا هذا.

للسُكْنى متجاورات، رباعية الشكل، ولمرافق المنزل الأخرى. وفي معظم الدُور أفنيةٌ صُغرى ثانوية، تشتمل على أماكن لَمرافِق المنزل أيضاً. ولا تخلو الدُور مِن حَمَّامات ومجار تحت الأرض. وكثيراً ما يكون فيها آبار. وتشتمل أيضاً على صحون ذوات طارمات. كما كان لمعظم الدور رَواشِن. وتشتمل الدُور أيضاً على سراديب للسكنى أيّام الصيف. والدُور على العموم مِن طابقٍ واحد. وقد يبلغ عدد الغرف في دار واسعة: ستّين غرفة. وبها شبابيك تُقْفَل بألواحٍ من زجاج ذات ألوان متنوّعة.

وكانت أبواب الدُور، تُصْنَع عادةً مِن الخشب المُحَلّى بالنُقُوش. وعلى الباب حَلْقَةٌ تدور بَلْولَب يُطْرَقُ بها الباب، لا نزال نرى بقاياها حتّى يومنا هذا، على أبواب دُورٍ في بعض مدن العراق.

وكانت الغرف في دُور كثيرٍ مِن سُراة القوم يوم ذاك، تُغَلَّف مِن داخلها بالواح خشب الساج الهنديّ، ويُطَعَّم بخشب النارَنْج، على أشكال زخارف ونقوش وكتابات، ونحو ذلك[٣].

ولم تكن العادة أن تُملأَ الغرف كلّها بالأثاث. فكان يَبْقَى فيها مجالٌ لظهور الناس، ولحركاتهم، وللابسهم.

وكانت الحيطان لا تخلو من السُتُور الحرير، والبُسُط المُعَلَّقة. وكان شُمُوع العَنْبَر تَتَوَسَّط المجالس. وكان لهم مَنَارة تَحْمِل الشُمُوع، تقوم على ثلاث قوائم، وتُوضَع وَسْط الغرفة، أو القاعة، وهي المعروفة اليوم بـ « الشَمْعَدَان ».

وكانت صُوَر الدَّعْوات الى المجالس، تتناسب مع البلاغة الأدبية الرائقة يوم ذاك. وكانوا إذا أرادوا الطعام، يُقَدِّم المُضيف الى ضيفِهِ قائمة بأصناف الطعام الذي عنده، قبل المباشرة بالأكل، أو يُعَدِّد الأسماء لفظاً حتّى تُعْلَم.

ومِن الأمور الطريفة بشأن دعوات الطعام يوم ذاك، انّ الناس اختلفوا في مسألةٍ، هي: محادثةُ صاحب الدعوة ضيوفَهُ على الطعام، فاستحسنه قومٌ وكَرِهَهُ آخرون. وقد قيل ما قيل في ذلك مِن مَنْظُومٍ ومَنْثُور. وذَكَر غير

(٣) راجع البحث الموسوم بـ « النجارة وفنون الحفر على الخشب » في كتابنا هذا.

واحدٍ مِمَّن عُني في هذه الشؤون، إنّ قَوْلَ الإنسان «الحمدُلله» في وَسْط تناول الطعام، غير مستحسن، لأنّه قد يَدْفَع الأضياف الى النُهوض قَبْل أن يَشْبَعُوا.

أمّا فَنّ الطَبْخ، فقد نال - في بغداد خاصة - في العصور السالفة، عناية كبيرة مِن أئمة المؤلّفين والعلماء. منهم: أبو الحسن علي[٤] بن يحيى بن أبي منصور المنجّم. نادم المتوكّل على الله وخُصَّ به وبمن بعده مِن الخلفاء الى أيّام المعتمد على الله. مِن تصانيفه: «كتاب الطبيخ». وابراهيم[٥] بن المهدي، وجَحْظَة[٦] البرمكي، وغيرهم مِمَّن صَنَّف في فنون الطبخ وتركيب الأطعمة، ونحوها.

وكان مصير تلكم التصانيف النفيسة، الضياع. أمّا ما سَلِم مِن كتب الطبيخ فهي لمؤلّفين متأخّرين بالقياس إلى مَن ذكرنا.

وكان شُرْبُ أهلِ بغداد عموماً مِن دجلة. فكان السَقّاءون يأخذون الماءَ مِن دجلة مباشرةً، في الرَوَايا والقِرَب ونحوها. وأحياناً مِن الآبار التي يَدْخل إليها الماء مِن قَنَوات. وهي عَذْبَة.

وذَكَر اليعقوبي[٧]، انّه كانت ببغداد، قناتان يجري فيهما الماء إليها، وكلتاهما مُغَطّاةٌ مُحْكَمَة. وإحداهما القناةُ التي كانت تأخذ مِن نهر كَرْخايا، الآخِذ مِن الفرات، في عقودٍ وثيقة مِن أسلفها، مُحْكمة بالصَارُوج - أعني بالنُورة وأخلاطها -، والآجرّ مِن أعلاها معقودة عَقْداً وثيقاً، فتَدْخُل المدينة وتَنْفَذ في أكثر شوارع الأرباض، تجري صيفاً وشتاءً، قد هُنْدِسَت هَنْدَسَةً لا يَنْقَطع لها ماءٌ في وقت.

---

(٤) توفّي سنة ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م. ترجمته وذِكْر آثاره، في:
معجم المؤلّفين (٧: ٢٦١ - ٢٦٢)، الأعلام (٥: ٣١)، وما ذكراه مِن مراجع بشأنه.

(٥) ابراهيم بن الخليفة المهدي العبّاسي. هو أخو الرشيد، وعَمّ المأمون والأمين والمعتصم. شيء مِن أخباره في البحث الموسوم بـ «مجالس الغناء والموسيقى والمَرَح» في كتابنا هذا.

(٦) شاعر، مُغَنّ، طنبوري مُجيد. حسن الأدب والمنادمة. كثير الرواية للأخبار. ظريف، حاضر النادرة. ألّف سبعة كُتُب في: الغِناء، والمنادمة، والطعام، وأخبار بعض الخلفاء. وقد ضاعت. مات سنة ٣٢٤ هـ = ٩٣٥ م.

(٧) كتاب البلدان (ص ٢٥٠).

وإذْ نحن بصَدَد الكلام على مياه الشُرْب ببغداد يوم ذاك. فقد كانت فيها جملة أماكن يُسْقَى فيها الماء المَثْلُوج[٨]، في الصيف، مُسَبَّلاً مِن سقايةٍ مَبْنِيّة، وحِباب نُحاس مَنْصُوبة، وقِلال خَزَفٍ في الحيطان مَبْنيّة، ومُزَمَّلات، ونحو ذلك.

وكانت وسائل النَقْل ببغداد على نوعَيْن رئيسَيْن: الدوابّ، والقوارب.

ومنذ المئة الثالثة للهجرة، كان إكتراء الحمير، أقرب وسيلة للانتقال، تستعملها الطبقة الوسطى. وكان أشهر محلّ يقف فيه الحمّارون بحميرهم، ببغداد عند باب الكرخ، وهو مدخل القسم التجاري مِن بغداد[٩].

وكان نهر دجلة بين يَدَي بغداد، يَزْخَر بضُرُوب السفن والمراكب، تَرُوحُ وتجيء. فمنها: الزَبَازِب، والطَيّارات، والزَلاّلات، والحَرّاقات، والسُمَيْرِيّات، والشَبّارات، والحَديديّات، والشَذّاءات، والخَيْطِيّات، وغيرها مِن سُفُن النهر التي كانت معروفة يوم ذاك[١٠].

وكان الكبراء والمُتْرِفُون مِن أهل بغداد، يَتَفَنَّنُون في بناء تلك السُفُن، ويُغالون في إتقانها، ويُبْدِعُون ما شاءوا في تزيينها، فأخرجوها في صُوَرٍ شَتَّى، حاكوا بها خِلْقة الحيوان والطير.

ومِمَّن غالَى بها كثيراً محمد الأمين[١١] الخليفة العبّاسي. عَمِل خمس حرّاقات في دجلة على خِلْقة: الأَسَد، والفيل، والعُقاب، والحيّة، والفَرَس. كما اتَّخذ السفن: الغُرابية والجَرادية والكَوْثَرِيَّة[١٢].

وذَكَر مؤرّخو بغداد، أنّه كان لدُور الشَطّ، أبوابٌ الى شوارعها، وعلى كلّ بابٍ مراكب مُسْرَجَةٌ مُهَيَّأَةٌ لركوب الشطّ. كما أنّ بين أيدي رَوَاشِنِها، خَيْطِيّة أو زَبْزَبٌ لركوب الشَطّ.

* * *

(٨) راجع البحث الموسوم بـ«تبريد الماء بالثلج» في كتابنا هذا.
(٩) كتاب البلدان: لليعقوبي (ص٢٤٤).
(١٠) راجع: معجم المراكب والسُفن في الإسلام: لحبيب زيّات (بيروت ١٩٥٠).
(١١) خلافته: ١٩٣ - ١٩٨هـ = ٨٠٨ - ٨١٣م.
(١٢) معجم المراكب والسفن في الإسلام (ص٣٣٠ - ٣٣١)، وما ذَكَره مِن مراجع.

هذه بعض صُوَرٍ تُنْبِىء عَمّا كانت عليه حال المعيشة وأسباب الحياة ببغداد في العصور السالفة. وهنالك صُوَر أخرى، تفصح عن مَناحٍ كثيرة في هذه الميادين، منها: اللباس والثياب والأزياء، وفنون الغِناء والموسيقى، ومجالس الغِناء والمَرَح واللعب بالخَيَال، ومجالس الخواصّ، ومجالس القُصّاص، وأسعار الأراضي والدُور، وإنشاء البساتين وغَرْسها، وغير ذلك كثير.

في بغداد
أُسْتُنْبِطَت الكتابة البارزة للعميان(*)

يذكر التاريخ الحديث، انّ رجلاً فرنسياً اسمه بِرَايْل[١] (Braille)، كان أعمَى لا يُبْصِر، استنبط في سنة ١٨٢٩م[٢] - أي قبل نحو مئة وخمسين سنة - الأسلوب المنسوب إليه لتعليم العميان القراءة والكتابة. وقد خلَّد اسمه وشَرَّف قومه الفرنسيين، بهذا الاستنباط الخطير الذي أخذت به أُمَم العالَم في تعليم العميان[٣].

ولكن مَن يدري انّ رجلاً عربياً، كان أعمَى أيضاً لا يُبصر، اسمه زين الدين عليّ بن أحمد الآمِديّ العابر، عاش في حدود سنة سبعمائة للهجرة - أي قبل نحو سبعمائة سنة -، كان السابق في هذا المضمار، وإليه يرجع دون سواه، الفضل كلّه في ابتداع الكتابة البارزة للعميان[٤].

(*) «العرب أوَّل مَن اخترع الكتابة البارزة للعميان». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلّة «أهل النفط» ٣[بيروت: تموز ١٩٥٤] ع٣٦، ص٢٥).

(١) لويس بِرَايْل: وُلد سنة ١٨٠٩م، في قرية قرب باريس. فَقَدَ بصره في الثالثة مِن عمره، في حادث مؤسف وقع له. توفِّي سنة ١٨٥٢م.

(٢) وقيل سنة ١٨٣٤م. وقيل أيضاً في نحو ١٨٥٠م.

(٣) راجع: (مجلّة «أهل النفط» ٢[بيروت - أيلول ١٩٥٢] ع١٤، بعنوان «أعمى ينير الطريق للعميان...»؛ (جريدة «العِزَّة» ٤[بغداد: الجمعة ٦ ت٢ ١٩٥٣، ع٩٣٠: «مدرسة موسيقية للعميان»)؛ (مجلّة «العربي» الكويت: تموز ١٩٦٠، ع٢٠، ص١١٥)؛ (جريدة «الدنيا» بيروت: الجمعة ٢٢ ك١ ١٩٧٢، ص٦ «العميان يبصرون بدون عيون»).

(٤) راجع: الخزانة الشرقية (٢:٣٤)؛ (زهير أحمد القيسي: لمحات مِن عبقرية العرب وشخصيته: برايل العرب علي الآمدي: جريدة «الجمهورية» ملحق طبّ وعلوم: بغداد - الخميس ١٩٧٧/١١/١٠، ع٣٠)؛

كان أستاذاً في المدرسة المستنصرية ببغداد. وله فيها غرفة خاصَّة به. تَرْجَمَهُ الصفدي[٥] في كتاب «نَكْت الهِمْيان في نُكَت العميان»[٦]. ووصفه بقوله: كان شيخاً مليحاً مَهيباً ثقةً صدوقاً، كبير القدر والسِنّ. أُضرَّ في أوائل عمره. وكان آيةً عظيمة في تعبير الرؤيا، مع مزايا أُخَر عجيبة، تدلّ كلّها على عبقريته وشدّة فطنته وذكائه.

وله حكايات غريبة، ذَكَر الصفدي طائفة منها. غير أنّ أَعْجبها، ما جرى له مع السلطان غازان المغولي ببغداد - وهو مِن أحفاد هولاكو بن جنكزخان -. قال: لمّا دَخَلَ السلطان غازان، بغداد، سنة خمس وتسعين وستمائة، أُعْلِم بالشيخ زَيْن الدين الآمِدي المذكور. فقال السلطان غازان لأصحابه: إذا جئتُ غداً المدرسة المستنصرية، أجتمع به. فلمّا أَتَى السلطان غازان المستنصرية، احتفل الناس له، واجتمع بالمدرسة أعيان بغداد وأكابرها مِن القضاة والعلماء والعظماء، وفيهم الشيخ زَيْن الدين الآمِدي، لتلقّي السلطان. فأمر غازان أكابر أمرائه أن يدخلوا المدرسة قبله واحداً بعد واحد، ويُسَلِّم كلّ منهم على الشيخ زَيْن الدين الآمدي، ويُوهِمَهُ الذين معه، انّه هو السلطان، إمتحاناً له. فَجَعَل الناس كلّما قدم أميرٌ يعظّمونه ويأتون به الى الشيخ زين الدين، ليسلّم عليه، والشيخ يَرُدُّ السلام على كلّ مَن أُتى به إليه، مِن غير تحرّك له ولا احتفال به. حتى جاء السلطان غازان في دون مَن تَقَدَّمه مِن الأمراء في الحَفْل، وسَلَّم على الشيخ وصافحه. فحين وَضَعَ يَدَهُ في يدِهِ نَهَض له قائماً وقَبَّلَ يَدَهُ وأَعْظَم مُلْتَقاه والإحتفال به، وأعظم الدعاء له باللسان المغوليّ، ثمّ بالتركيّ، ثمّ بالفارسيّ، ثمّ بالروميّ، ثمّ بالعربي. ورَفعَ به صوتَهُ إعلاماً للناس. وكان زَيْن المذكور عارفاً بكثيرٍ مِن الألْسُن واللغات. فعجب السلطان غازان مِن فطنته وذكائه، وحِدّة ذهنه، ومعرفته مع انّه ضرير. ثمّ انّ السلطان خَلَعَ عليه في الحال ووهبه مالاً،

(عبد الحميد العلوجي: الحروف البارزة اختراع عربي: مجلّة «ألف باء» ١١[بغداد - ٢٠ أيلول ١٩٧٨] ع٥٢٢، ص٣٠ - ٣١).

(٥) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي. توفّي في دمشق سنة ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م.

(٦) (ص٢٠٦ - ٢٠٨)؛ وانظر أيضاً: الدرر الكامنة (٣: ٢١ - ٢٢)؛ الأعلام (٤: ٢٥٧)، معجم المؤلّفين (٧: ٣٢).

ورَسَم له بمرتب يجري عليه في كلّ شهر. وحظي عنده، وعند أمرائه ووزرائه.

وصَنَّف جملة كُتب، وله تعاليق في اللغة والفقه. وكان يَتَّجر بالكُتُب.

أمّا قصّة استنباطه الكتابة البارزة الخاصَّة بالعميان. فهي انّه كان يُحْرِزُ كُتُباً كثيرة جداً. وكان إذا طُلِب منه كتابٌ، وكان يَعْلَم انّه عنده، نَهَض الى خزانة كُتُبه واستخرجه مِن بينها، كأنّه قد وَضَعَهُ لساعته. وإنْ كان الكتاب عدّة مجلَّدات، وطُلِب منه الأول مثلاً أو الثاني أو الثالث أو غير ذلك، أخرجه بعينه وأتَى به. وكان يَمَسُّ الكتاب أولاً، ثمّ يقول: يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كُرَّاسة. فيكون الأمر كما قال. وإذا أَمَرَّ يده على الصفحة، قال: عدد أسطر هذه الصفحة كذا وكذا سَطْراً، وفيها بالقلم الغليظ كذا. وهذا الموضع كُتِب به في الوُجْهَة - أي في الجانب -، وفيها بالحُمرة هذا. وهذه المواضِع، كُتِبت فيها بالحُمرة. وإنْ اتَّفق انّها كُتِبت بخطَّيْن أو ثلاثة، قال: اختلف الخطّ مِن هنا الى هنا، مِن غير إخْلالٍ بشيءٍ ممَّا يُمْتَحَن به.

والأَدْهى مِن ذلك، انّه كان يعرف أثمان جميع كتبه التي اقتناها بالشراء، وذلك انّه كان إذا اشترى كتاباً بشيءٍ معلوم، أَخَذَ قطعة ورق خفيفة، وفَتَل منها فَتيلة لطيفة - أي صغيرة - وصَنَعها حَرْفاً أو أكثر مِن حروف الهجاء، لعَدَدِ ثَمَن الكتاب، بحساب الحروف. ثمّ يُلْصِق ذلك على طَرَف جلْد الكتاب مِن داخل، ويُلْصِق فَوْقَهُ ورقةً بقَدْره لتتأبَّد[٧]. فإذا شَذَّ عن ذهنه كمّية ثَمَن كتابٍ ما مِن كُتُبه، مَسَّ الموضع الذي عَلَّمهُ في ذلك الكتاب بيده، فيعرف ثَمَنَهُ مِن تَنْبيت العدد المُلْصَق فيه.

وهذا الأسلوب هو بعينه الكتابة البارزة الخاصَّة بالعميان.

وهو أمرٌ يَدُلّ دَلاَلة لامعة على عناية أولئك الأقدمين بأمورٍ يُظَنّ أنّها مِن مبتكرات العصور الحديثة ومستنبطات المدنية الحاضرة.

---

(٧) أي لِتَبْقَى ثابتة في محلّها.

المأمون

يثبت انّ الهواء جسم

قال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور[١]: «ذكر لنا عن عبد اللّه[٢] ابن طاهر، قال: سمعتُ المأمون[٣]، يقول: الهواء جسم. وكان يخالف مَن يقول انّه غير جسم. قال عبد اللّه: وأرانا المأمون دليل ذلك: فَدَعا بِكُوز زجاج له بُلْبُلَة، فَوضَع أصبعه على البُلْبُلَة، وملأَ الكوز ماء، فامْتَلأَ إلى أعلاه، ولم يدخل البُلْبُلَة منه شيء. فلّما رَفَع أصبعه، مِن البُلْبُلَة صار الماء فيها حتّى فار فخرج، فَدَلَّ على انّ الذي كان في البُلْبُلَة هواء محصور، وانّ المحصور هو جِسْم»[٤].

---

(١) أحد البلغاء الشعراء، الرواة. وُلِد ببغداد، وتوفّي فيها سنة ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م. له تآليف، منها: «كتاب بغداد في أخبار الخلفاء وأيّامهم».
ترجمته وأخباره، في: الأعلام (١:١٤١)، معجم المؤلّفين (١:٢٥٦ - ٢٥٧)، وما ذكراه مِن مراجع بشأنه.

(٢) عبد اللّه بن طاهر بن الحسين: أمير خراسان وأجلّ أعمال المشرق. وولي مصر مِن قِبَل المأمون. كان مِن سروات الناس أدباً وفضلاً وسياسة وتدبيراً وسخاءً وكرماً. قال المأمون بحقّه: انّه يزيد على جميع أهل دهره نزاهة وحسن سيرة. مات سنة ٢٣٠ هـ = ٨٤٤ م، أيّام الواثق. أخباره مستوفاة في: تاريخ الرسل والملوك: (فهارسه)، الديارات: للشابشتي (ص٣٦، ٣٧، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ٣٨٦)، الولاة والقضاة للكندي (ص١٨٠ - ١٨٤)، الأغاني (١١:١١ - ٢٣؛ ط الساسي)، الفهرست: لابن النديم (ص١١٧)، وفيات الأعيان (١:٣٦٩ - ٣٧١)، النجوم الزاهرة (٢:١٩١ - ٢٠٤).

(٣) عبد اللّه المأمون بن هرون الرشيد. خلافته ١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م.

(٤) كتاب بغداد (٦:١٧٤).

العطلة الأسبوعية(*)

كان الرَسْم جارياً منذ صدر الدولة العباسية على إغلاق الدواوين بدار الخلافة ببغداد، وقَطْع الأعمال يوم الجمعة، لينصرف فيه الناس الى الصلاة جماعة، فكانوا يقضون أكثر النهار في المساجد للصلاة ولسماع الوعظ. وبقيت الحال على هذا الوجه، حتّى جاء المعتضد بالله الخليفة العبّاسي، فأضاف يوماً آخر يتوسَّط جمعة وأخرى، وهو الثلاثاء، حيث تُغْلَق فيه الدواوين، ويكون يوم راحة ولهو.

وممّا حَدَّثتنا به المراجع التاريخية، انّه «أَمَرَ عُبَيْدُ[1] اللّه بن سليمان، وبَدْراً[2] بأن لا يحضرا ولا أحدٌ مِن القُوّاد والأولياء، الدار[3] في يومَي الجمعة والثلاثاء، لحاجة الناس في وسط الأسبوع الى الراحة، والنظر في أمورهم، والتشاغل بما يخصّهم، ولأنَّ يوم الجمعة يوم صلاةٍ، وكان يُحِبّهُ، لأنَّ مؤدِّبه كان يصرفه فيه عن مكتبه. وتَقَدَّم الى عُبيد اللّه بأنْ يجلس في يوم الجمعة للمظالم[4] العامة، وإلى بَدْر بأن يجلس لمظالم الخاصّة. ومنع مِن أن

(*) «العطلة الأسبوعية في الدولة العباسية» بقلم: ميخائيل عوّاد: («مجلّة المجمع العلمي العربي» ١٨ [دمشق١٩٤٣] ص٥٢ - ٥٨).

(١) هو أبو القاسم عُبَيْد اللّه بن سليمان بن وهب بن سعيد. مِن كبار الوزراء، ومشايخ الكُتّاب. استوزره المعتضد بالله. توفي سنة ٢٨٨ هـ.

(٢) مِن موالي المتوكّل على اللّه. خَدَم المعتضد والموفّق. وكان صاحب جيش المعتضد. قتله المكتفي سنة ٢٨٩ هـ.

(٣) يعني: دار الخلافة العباسية ببغداد.

(٤) راجع بشأن «الجلوس للمظالم»:

يفتح في هذين اليومَيْن ديوان، أو يخرج شيء الى مجلس التفرقة على الجيش خاصَّة...»[5].

وكان عمّال الدواوين ببغداد، يجتمعون في يوم الثلاثاء في دُورهم، أو يقصدون البساتين، فيقضون عامة نهارهم في الأنس، وكثيراً ما كانوا يتذاكرون في شؤون وظائفهم.

وشاع أمر عطلة الثلاثاء بين الناس، وسَرَت مِن خاصَّتهم الى عامَّتهم، فأضحى يوماً مخصَّصاً للبطالة واللهو والقَصْف والغِناء، ومُلْتَقَى الأَحْباب والعُشَّاق، وشرْب الصَبُوح والغَبُوق. فكان مِن العار على المرء أن يَبْقَى في داره بعيداً عن الأنْس والطرب، واللهو والشَراب.

وأَصْدَق شاهد على ذلك، ما كَتَبَه أبو محمد الحسن بن أحمد البروجردي الى صديقٍ له:

يوم الثلاثاء للسرور فلا تكن	عنه بغير السرور مشتغلا
والدهر في غفلة وعيشك لا	يطيب إلاّ والدَّهر قد غفلا
عَجّل وبادر بدار مغتنم	فالدَّسْت والله لأمرئٍ عجلا[6]

وقال غيره:

يوم دجن قد تَنَاهَى طيبه	وحقيق أن يجينا بالمطر
والثلثاء ينادي غدوة	ما للهو بعد هذا منتظر
هل يجوز الصحو في أثنائه	إنّ هذا الرأي مِن إحدى الكبر[7]

البلدان: لليعقوبي (ص٢٦١)، تاريخ الرسل والملوك (٣: ١٧٨٨، حوادث سنة ٢٥٦ هـ)، صلة تاريخ الطبري: لعريب بن سعد القرطبي (ص٧١)، ملحق الولاة والقضاة للكندي (ص٥٧٧)، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص٢٢، ٦٦)، الأحكام السلطانية: للماوردي (ص١٤٣)، الأحكام السلطانية: لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ص٥٨ - ٧٤)، المنتظم (٦: ١٤٨)، المغرب في حلى المغرب: لابن سعيد (ص٣٩)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (ص٢٤٣)، رحلة ابن بطّوطة (١: ٨٩)، خطط المقريزي (٣: ٣٣٦ - ٣٣٩)، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١: ٣٨٣ - ٣٨٥، الترجمة العربية).

(٥) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص٢٢).
(٦) يتيمة الدهر (٤: ٣٦٤).
(٧) يتيمة الدهر (٤: ٣٨٢).

ومِن طريف المروِيّات في هذا الباب، ما أنشده أبو سعد عبد الرحمن بن محمد بن دوست:

يغيب البدر يوماً ثمّ يبدو فما لك غبْتَ عن عيني ثلاثا
فإنْ لم تطلع الإثنين عَصْراً فلستَ بواجدي يوم الثلاثا[٨]

ويُسْتَدَلّ مِن هذا، انّ القوم كانوا يتهيّأون مِن عصر الإثنين، فيستحضرون ما لذّ وطاب مِن الطعام والشراب، ولم يكن يفوتهم إصطحاب آلة الطرب وغيرها مِن مُتَمِّمات أسباب السرور، فيتركون بغداد، صاعدين بدجلة في شَذّاءاتهم، أو سُمَيْرِياتهم، أو طَيّاراتهم، أو نحوها مِن وسائل النقل النهرية يوم ذاك، قاصدين قُطْرَبُّل[٩]، أو القُفْص[١٠]، أو أَوَانا[١١]، أو غيرها مِن مواطن القَصْف والتِيه، أو منحدرين الى بعض الديارات بجوار المدائن، فيَبِيتُون في أنْعم حال، ويقضون عامة يوم الثلاثاء. فإذا دَنَا مساؤه قفلوا راجعين.

وكان مِن جميل الإتفاقات، أن وَقَع النيروز في إحدى السنين يوم الثلاثاء، وأصبحت المسرّة بذلك مَسَرَّتَيْن. فكتب ابن الروميّ الى عُبيد الله بن عبد الله يهنئه:

يوم الثلاثاء ما يوم الثلاثاء في ذروة مِن ذرى الأيام علياء
كأنّما هو في الأسبوع واسطة في سمط دُرّ يحلي جيد حسناء
ما طبق الله نيروز الأمير به إلاّ لتلقاه فيه كلّ سراء

---

(٨) يتيمة الدهر (٤:٣٩٠).

(٩) قرية بين بغداد وعُكْبَرا، يُنْسَب إليها الخمر، ومازالت مُتَنَزَّهاً للبَطّالين وحانة للخَمّارين. وقد أكْثَر الشعراء مِن ذِكْرها: (معجم البلدان ٤:١٣٣).

(١٠) قرية مشهورة بين بغداد وعُكْبَرا، قريب مِن بغداد. كانت مِن مواطن اللَّهْو ومَعَاهد النزه ومجالس الفرح. يُنْسَب إليها الخمور الجيّدة والحانات الكثيرة. وقد أكْثَر الشعراء مِن ذِكْرها: (معجم البلدان ٤:١٥٠ - ١٥١).

(١١) بُلَيْدة كثيرة البساتين والشجر، نزهة. مِن نواحي دُجَيْل بغداد. بينها وبين بغداد عشرة فراسخ مِن جهة تكريت. وكثيراً ما يذكرها الشعراء الخُلَعاء في أشعارهم: (معجم البلدان ١:٣٩٥ - ٣٩٦).

لا سيما في ربيـــع ممرع غـــدق   ما انفكّ يتبع أنواء بأنواء
لم يبق للأرض مِن سرّ تكاتمه   إلاّ وقد أظهرته بعد إخفاء
أبدت طرائف شَتّى مِن زواهرها   حمراء صفراء ،وكلّ نبت غبراء[12]

(١٢) ديوان ابن الرومي (٢: ٢٧١ - ٢٧٢).

الجمعة ببغداد

مِن عجائب الإسلام الأربع

عُرف قديماً أنّ عجائب الدنيا سبع، وعُرِفت عجائب الإسلام انّها أربع. قال المقريزي[1]: «...قال القُضاعي[2]: المنظر، بناه أحمد[3] بن طولون في ولايته لعَرْض الخَيْل، وكان عَرْض الخَيْل مِن عجائب الإسلام الأربع، ورمضان بمكّة، والعِيد كان بَطَرسُوس[4]، والجمعة ببغداد. فبقي مِن هذه الأربعة: شهر رمضان بمكّة، والجمعة ببغداد، وذهبت اثنتان. قال كاتبه: وقد ذهبت الجمعة ببغداد أيضاً بعد القضاعي، بقتل هولاكو للخليفة المستعصم [في رابع صفر سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة]».

---

(١) خِطَط المقريزي = المواعظ والإعتبار بذِكْر الخطط والآثار (٢:١١٢).

(٢) هو محمد القُضاعي. له «المختار في ذِكْر الخطط والآثار» في خِطَط مصر. توفي سنة ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢م.

(٣) مؤسِس الدولة الطولونية (٢٢١ - ٢٧١ هـ = ٨٣٥ - ٨٨٤م). وهو باني جامع ابن طولون في القاهرة.

(٤) مدينة بثغور الشام، بين أنطاكية وحلب.

صُوَرٌ مِن العِيد

سُمّي العِيد عيداً، لأنّه يعود كلّ سنة بفرحٍ مُجَدَّد. والأعياد الإسلامية التي وردت بها الشريعة اثنان: عيد الفطر، وعيد الأَضْحَى. وهناك أعياد أخرى جليلة القدر. وللمسلمين في كلٍّ مِن هذه الأعياد، رُسُوم وقواعد، يَبْذلون فيها الأموال، ويوزّعون الصدقات، ويهدون الهدايا.

وكان الإحتفال بالعيدَيْن الكبيرَيْن، في العصور الإسلامية السالفة، على جانب كبير مِن الروعة والأُبَّهة في ديار المشرق، ولا سيما في العراق والحجاز والشام ومصر.

وكانت دار الخلافة العباسية ببغداد يوم ذاك، تظهر بأَبْهَى زينة وأَكْمَل عُدَّة في أيّام الأعياد، فَتُفْرَش بالفروش الجميلة، وتُزَيَّن بالآلات الجليلة، ويتمّ ترتيب الحُجَّاب وخلفائهم، والحواشي على طبقاتهم، على أبوابها، وفي دهاليزها، ومَمَرَّاتها ومُخْتَرَقاتها، وصُحونها ومجالسها. ويقف الجند على اختلاف أَجْيالهم[1] صَفَّيْن بالثياب الحسنة، وتحتهم الخيل بالمراكب[2] الذهب والفضّة، وقد أظهروا العُدَد والأسلحة الكثيرة.

وفي دجلة ضروب السفن والمراكب المعروفة يوم ذاك، كالشَبَّارات،

---

(١) الأَجْيال، جَمْع جِيل: الصنف مِن الناس.

(٢) المَراكب، جَمْع مَرْكَب. والمراد به هاهنا: السَرْج وما يتعلّق به. وأَغْلَى المراكب قيمة ما كانت مُذْهَبَة مُرَصَّعَة بالجَوْهَر النفيس.

والزَبَازِب، والزَلّالات، والسُمَيْريّات، والطَيّارات، والشَذّاءات، كلّها بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة، مملوءة بالناس، تروح وتجيء بهم.

وكان مِن عادة الوزير في صدر الدولة العباسية ببغداد، أن يُغَلِّس[٣] في الركوب الى المُصَلَّى في أيام الأعياد، ليكون بين يَديّ الخليفة، ثمّ يعود الموكب الى دار الخلافة.

وغالَى بعض القُوّاد، أيّام بني العبّاس، في خروجهم أيّام الأعياد في موكب فخم عظيم. فقد حُكِي عن نازوك[٤]، وكان صاحب المَعُونة[٥]، انّه خَرَج في فجر يوم عيد الأضحى، في موكب عظيم، وبين يَدَيْه أكثر مِن خمسمائة رجل بالشُمُوع الموكبية[٦] الكبيرة، سوى أصحاب النفط[٧]، وهم عدد أكثر. فقال له الوزير: مَدَّ الله في عمركَ يا نازوك، وكَثَّرَ في أولياء الدولة مثلك. فقد بلغني عن موكبك اليوم، ما جَمَّلْتَ به الدولةَ والإسلام، وأرغمتَ فيه أنوفَ أهل الكفر والعناد. فبارك الله فيك، وأحسنَ عن السلطان جزاءَك، فلم يبقَ مِن شيوخ دولته وحاشيته مَن يجري مجراك.

ومِن طريف ما يُذْكَر بشأن الأعياد ببغداد في تلك العصور المزدهرة، انّ عليّ بن عيسى، الوزير المشهور، ذَكَر في العَمَل[٨] الذي عَمِلَهُ لإرتفاع المملكة في سنة ستٍّ وثلثمائة للهجرة، انّ النفقات التي تُطْلَق على سِمَاطَي العيدَيْن، وثَمَن الأَضاحي، والثلج، وما يُطْلَق لصاحب الشرطة لحَمْل الأَعلام

---

(٣) غَلَّسَ: قام عند الغَلَس، وهي ظلمة آخِرِ الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

(٤) نازوك، وقيل نيزوك: أمير، شجاع، تصرَّف في الدولة العباسية تصرّفات خطيرة، خاصّة أيّام المقتدر باللّه. ونُسِب الى المعتضد، فدُعي بـ «نازوك المعتضدي». قُتِل سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م.

(٥) صاحب المَعُونَة، ويُسَمَّى أيضاً عامل المَعُونَة، أو والي المَعُونَة، أو ناظِر المَعُونَة. جَمْعُها: المَعَاوِن. وهو - على ما قال الحريري في (مقاماته، ص١٥٨) -: المُرَتَّب لتقويم أمور العامة، فكأنّه معين المظلوم على الظالم، يعني الوالي، أي والي الجنايات. قال في (التعريفات، ص٢٣٤): «المَعُونَة ما يظهر مِن قِبَل العوامّ تخليصاً لهم مِن المِحَن والبلايا». وبالفرنسية: Préfet De Police. وهو ما يقابل (مدير الشرطة العام) في أيّامنا الحاضرة.

(٦) نسبة الى الموكب. وهي الشموع الضخمة التي تُوقد في المواكب، أي في المسير جاعات رِكباناً كانوا أم مشاة.

(٧) هم حاملو مشاعل النفط في المواكب.

(٨) العَمَل: هو ما يُعَبَّر عنه في زماننا، بـ «الميزانية». راجع البحث الموسوم بـ «ميزانية بغداد قبل ألف ومئة سنة»، في كتابنا هذا.

في العيدَيْن، وثَمَن أشياء أخرى: مجموع ذلك نحو مِن اثنين وأربعين ألْف دينار في السنة[٩].

هذه طائفة مِن الصُوَر، تفصح عن حال الأعياد ببغداد، في العصر العبّاسي، وكيف كان احتفال القوم بها على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم، بالغاً حَدّ النهاية بالأُبَّهَة.

(٩) أنظر: رُسُوم دار الخلافة (ص٢١ - ٢٢).

مجالِس
الغِناء والموسيقى والمَرَح

مِن الصُوَر الطريفة التي كان لها الصدارة في عصور بغداد السالفة المزدهرة: فنون الغِناء والموسيقى. فقد كانت آلات الموسيقى في أغلب الأحيان: العُود، والطُنْبُور، والقانون، والمِزْمَار، والجُنك. وكانت الجواري يُغَنِّين مِن وراء سِتارة. وإذا بالغ ربّ البيت في إكرام ضيوفه، طَلَب إليهن أن يُغَنّين بين يَدَيّ الستارة، حيث يصيح بهنّ: ما هذا الإحتشام لأضْيافنا أَعَزَّهم الله، أخرجن. فيهتك الستارة، فيخرجن، وهنَّ ما بين: عَوَّادة، وطُنْبُوريَّة، وزامِرة، وصَنّاجة، ورَقَّاصة، ودَفَّافَة، وكَرَّاعَة[1]. وكلّهن بفاخر الثياب ونفيس الحُلي.

يُذْكَر عن مُخارِق[2] المُغَنّي، انّه غَنَّى يوماً في مُتَنَزَّه في ناحية مِن بغداد، وقد سَنَحت ظباء، فجاءت إعجاباً بغنائه.

وتَوَسَّط دجلة يوماً، وهو في طَيَّار[3]، قُرْب دار الخلافة، واندفع بأَعلى صوته، فَغَنَّى. فلم يَبْقَ أَحَدٌ سَمِعَهُ إلاّ بَكَى. وكان غِناؤه يُسِرُّ من جَاله كلّ قلب.

---

(١) كَرّاعة: مغنّية تغنّي على طبلٍ صغير.

(٢) مغنّ مطرب. غَنّى لخمسة مِن الخلفاء: الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق. توفّي في سامراء سنة ٢٣١ هـ = ٨٤٥ م. راجع بشأنه: الأغاني (٢١:١٤٣ - ١٥٩)، النجوم الزاهرة (٢:٢٦٠).

(٣) الطَيّار. ويُقال فيه الطَيّارة. ج: الطَيّارات: ضَرْب مِن سفن النهر القديمة أكثر ما اتُّخِذ في العراق: لركوب العظماء. والظاهر انّهم سمّوه بالطَيّار، لأنّه مِن السفن الخفيفة السريعة الجريان، كأنه لسرعته يطير على وَجْه الماء.

كان الخليفة الأمين، يَتَرَدَّد كثيراً على حَيْر[٤] الوحش المتصل بدار الخلافة ببغداد، ومعه ابراهيم[٥] بن المهدي، المغنّي الشهير. قال شاهد عيان: انّ ابراهيم غَنَّى في أحد الأيّام، أشدّ طبقة يُتَنَاهَى إليها في العُود. قال: وما سَمِعْتُ مثل غِنائه يومئذٍ قَطّ. ولقد رأيتُ منهُ شيئاً عجيباً لو حُدِّثْتُ به ما صَدَّقْتُ. كان إذا ابتدأ يُغَنّي، أَصْغَت الوحوش إليه ومَدَّت أعناقها، ولم تَزَل تدنو مِنّا حتى تكاد أن تضع رؤوسها على المحلّ الذي كنّا عليه، فإذا سَكَتَ نَفَرَت وبَعُدَت عنّا. وجعل الخليفة الأمين يَعْجَب مِن ذلك.

ومِن طريف ما يُنْقَل عنه بشأن غنائه، انّه غَنَّى يوماً في مجلس المأمون، فأَحْسَن كثيراً، وكان في المجلس كاتب مِن كُتّاب طاهر بن الحسين أمير بغداد، يكنى أبا زيد، وكان قد بعثه في بعض أموره، فطرب أبو زيد هذا، فأَخذ بطرف ثوب ابراهيم فَقَبَّلَهُ مِن شدّة إعجابه وسروره، فنظر إليه المأمون كالمنكر لما فعل. فقال له أبو زيد - وقد فَقَد شعوره أو كاد -: ما تنظر. أقبِّله والله ولو قُتِلْتُ. فَتَبَسَّمَ المأمون.

وعلى هذا، فقد كان يعتري البعضَ عند سَماعِهِ الغناء، تأثّرٌ شديد، فكان أَحَدُهم يُمَزِّق ثوبَهُ، وآخرَ يَدُقّ الحائطَ برأسِهِ، ومنهم مَن كان يتمرّغ في التراب، وغيرهم مَن يَهيجُ ويُزْبِدُ ويَعَضُّ بنانَهُ.

وكانت مجالس الغِناء والمرح في بغداد، لا تخلو في بعض الأحايين مِن اللَّعِبِ بالخَيَال، أو ما يُسَمَّى بـ «طَيْف الخيال» أو «خَيَال الظِلّ». وهو عبارة عن ألعاب كانت تَظْهَرُ على أُزُرٍ بيض، وتُبْرِزُها أضواءُ طائفةٍ مِن الشُموعِ في قاعاتٍ مظلمة إنْ في الليل وإنْ في النهار. كانوا يُمَثِّلون فيه

---

(٤) الحَيْر: هو ما يُعْرَف في عصرنا بـ «حديقة الحيوانات». راجع البحث الموسوم بـ «حدائق الحيوانات». في كتابنا هذا.

(٥) ابراهيم بن الخليفة المهدي العبّاسي. هو عمّ المأمون والأمين والمعتصم، وأخو الرشيد. كان بُويع بالخلافة بعد مقتل الأمين، فلم يتمّ أمره. فانهزم واختفي سنين الى أن ظفر به المأمون، وعفا عنه. كان فاضلاً، شاعراً، فصيحاً. غلب عليه الغِناء، فبرز فيه، وأعجز وسحر وبهر، حتّى ضُرب به المثل. ذَكَر له ابن النديم، مؤلّفات في الغِناء والموسيقى والمنادمة، ضاعت جميعها. توفّي ببغداد سنة ٢٢٤ هـ = ٨٣٨م. ترجمته وأخباره في:
الأغاني (٩:٤٦ - ٧٣، ١١٥ - ١١٦)، الأوراق: أشعار أولاد الخلفاء (ص١٧ - ٤٩)، تاريخ بغداد: للخطيب (٦:١٤٢ - ١٤٨)، الديارات (ص١٦، ٣٦، ١٠٠، ٢٧٨)، وفيات الأعيان (١:١٠ - ١٢).

صُوَرَ الرجالِ والنساء، على سبيل العَبْث واللّهْو أو الهَجْوِ. وهو كالرواية الهَزْلِيَّة. وخيال الظِلّ هو المُسَمَّى بالتركية «قَرَهْ كُوز».

والمجالس ببغداد يوم ذاك على نوعَيْن: مجالس الخواصّ، ومجالس القصَّاص. فكانت الحكايات القصيرة مِن النوادر الهزلية، والأحاديث التي تَتَجَلَّى فيها اللباقة العقلية، تُذْكَر في مجالس الخواصّ. أمّا الحكايات الطِوال، فكانت بمجالس القصَّاص أَوْلَى. «فكان حال القصّاص ببغداد، أن يَتَصَدَّر المجلس، ويأخذ بأَلْباب الناس بنكاته ولباقته وتفنّنه. فكان يقصّ على سامعيه بصوته العريض المتَّزِن، حروب عنترة، أو مخاطر سيف بن ذي يزن، أو وقائع أبي زيد الهلالي، فينتقل بهم الى عصور أولئك الأبطال الشجعان، فيأخذ الحماس منهم كلّ مأخذ، وهم في هذه النشوة مِن الحماس، واذا بالبطل يقع أسيراً بأيدي أعدائه، فيستأذنهم بالوقوف عند هذا الحدّ، ليعود بهم في الليلة الثانية، ويقصّ عليهم مصير البطل وكيف تخلّص مِن الأَسر وانتصر في المعركة»[٦].

وممّا يدخل في هذا الباب، ما يُحْكَى عن رجلٍ كان ببغداد، يتكلّم على الطريق ويقصّ على الناس بأنواع من الأخبار والنوادر والمضاحك، يُعْرَف بابن المغازلي. وكان في نهاية الحذق والظرف، لا يستطيع مَن يراه ويسمع كلامه، إلاّ أن يضحك. فكان لا يدع حكاية أعرابي ونجدي ونبطي وزطّي وزنجي وسِنْدي وتركي ومكّي، إلاّ حكاها. ويخلط ذلك بنوادر تثير الضحك. وقد سمع الخليفة العبّاسي المعتضد بالله، بنوادره وحكاياته العجيبة، فأُعْجِب بها، وأمر باحضاره بين يديه.

ونظير ابن المغازلي في تلك الصفة الطريفة الظريفة، شخص آخر عاش ببغداد في المئة الرابعة للهجرة، ويكنى بأبي الورد. كان مِن عجائب الدنيا في المطايبة والمحاكاة. كان يحكي شمائل الناس وألسنتهم، فيؤدِّيها كما هي. فيعجب الناظر والسامع، ويضحك الثكلان.

* * *

---

(٦) ألف ليلة وليلة مرآة الحضارة والمجتمع في العصر الإسلامي (ص٣ - ٤).

هذا غَيْض مِن فَيْض، من «مجالس الغناء والموسيقى والمرح ببغداد، في العصر العبّاسي»، وما بَلَغَتْهُ تلكم المجالس مِن شهرة في ميادين الطرافة والظرافة، والفنّ والأدب، ونحو ذلك. كان لها عظيم الأثر في تاريخ الحضارة العالمية الحاضرة.

زِرْياب
المُغَنّي الشهير والموسيقي البارع
قِصَّتُهُ في بغداد

هو أبو الحسن عليّ بن نافع المشهور بزِرْياب. وُلِد ببغداد، وغَلَب عليه هذا اللقب مِن أَجْل سواد لَوْنه، مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله. شُبِّه بطائرٍ أَسْوَد غرَّاد.

تَتَلْمذ زِرْياب[1] على يد اسحاق بن ابراهيم الموصليّ، أعظم المغنّين والموسيقيين في عصره، فَتَلَقَّف مِن أغانيه إستراقاً وخُلْسَة. وكان له مِن الفَهْم في صناعة الغِناء والموسيقى، مع طِيب الصوت، ما فاق به اسحاق، واسحاق لا يَشْعُر بما فُتِح عليه.

وتبدأ الصفحة الأولى من تاريخ حياته، يوم طَلَب هرون الرشيد، الى اسحاق الموصليّ، أن يُحْضِرَ له مغنّياً غريباً مُجيداً للصَّنْعَة، لم يشتهر مكانه إليه. فَذَكَر له تلميذَهُ زِرْياباً، وقال له: انّه مولىً لكم. وسمعتُ له نَغَمات رائقة، وأَحدِس أن يكون له شأن. فقال الرشيد: هذا طَلِبَتي فأحضِرْنيه. فأَحضرَهُ. فلمّا كلّمه الرشيد، أَعْرَب عن نفسه بأحسن منطق وأَوجز خطاب. وسأله عن معرفته بالغِناء. فقال: نعم، أُحْسِنُ منه ما يُحْسِنُهُ الناس، وأكثر

---

(١) ترجمتُهُ وأخباره في: نفح الطِيب (٢:١٠٩ - ١١٥)؛ تاج العروس (١:٢٨٦؛ مادة: زرب)؛ الخزانة الشرقية (٣:١٣٣ - ١٣٤)؛ قاموس الموسيقى العربية (ص٣١٥، ٣٢٨ - ٣٢٩)؛ معجم الموسيقى العربية (ص١٣٠، ١٣٨)؛ سعيد الديوه‌چي: مِن أعلام الموسيقيين العرب: «زِرْياب: أبو الحسن عليّ بن نافع، المتوفّى سنة ٢٣٨ هـ»: (مؤتمر بغداد الدولي الثاني للموسيقى - ١٩٧٨)؛ الأعلام (٥:٢٨) وما ذكره مِن مراجع بشأنه.

ما أُحْسِنُهُ لا يُحْسِنُونَهُ مِمَّا لا يُحْسَن إلاّ عندكَ ولا يُدَّخَر إلاّ لكَ. فإنْ أَذِنتَ غَنَّيْتُكَ ما لم تَسْمَعْهُ أُذُنٌ قبلَكَ. فأَمَرَ الرشيد بإحضار عُود استاذه اسحاق. فلمّا أُدْنِيَ إليه، وَقَفَ عن تناوله. وقال: لي عُودٌ نَحَتُّهُ بيدي، وأرْهفتُهُ بإحكامي، لا أرتضي غَيْرَهُ، وهو بالباب، فليأذَن لي أمير المؤمنين في استدعائه. فأَمَرَ بإدخاله إليه. فلمّا تأَمَّلَهُ الرشيد وكان شبيهاً بالعُود الذي دَفَعَهُ، قال له: ما مَنَعَكَ أن تستعمل عُود أستاذك؟ فقال: إنْ كان مولاي يرغب في غِناء أستاذي، غَنَّيْتُهُ بعُوده، وإنْ كان يرغب في غنائي، فلا بدّ لي مِن عُودي. فقال له: ما أراهما إلاّ واحداً. فقال: صدقتَ يا مولايَ، ولا يؤدّي النظر الى غير ذلك، ولكنّ عُودي وإنْ كان في قَدْر جسْمِ عُوده، ومِن جنس خشبه، فهو يقع مِن وَزْنه في الثُلُث أو نَحْوه. وأوتاري مِن حرير لم يُغْزَل بماءٍ سَخِنٍ يُكْسِبُها أناثةً ورخاوة. وبَمُّها[٢] ومُثَلَّثُها اتَّخذتُها مِن مُصْران شِبْلِ أَسَد، فَلَها في التَرَنُّم والصَفاء والجَهَارة والحِدَّة أضعاف ما لغيرها مِن مُصْران سائر الحيوان. ولها مِن قوّة الصبر على تأثير وَقْع المضارِب[٣] المتعاورة بها، ما ليس لغيرها. فاستبرع الرشيد وَصْفَهُ، وأمره بالغناء. فَجَسَّ عُودَهُ، ثمّ اندفع فغَنَّاه:

يا أيّها الملك الميمون طائره ‏ ‏ ‏ هارون راح إليكَ الناس وابتكروا

فأجاد. وطار الرشيد طَرَباً. وقال لإسحاق: واللهِ لولا أنّي أَعْلَم مِن صِدْقكَ لي على كتمانه إيّاك لما عِنْدَهُ، وتصديقه لكَ مِن انّك لم تَسْمَعْهُ قبلُ، لأَنْزَلْتُ بك العقوبة، لتركِكَ إعلامي بشأنه. فخذْه إليك، واعْتَنِ بشأنه حتّى أفرغ له. فإنّ لي فيه نَظَر. فسقط في يد اسحاق، وهاج به مِن داءِ الحَسَد ما غَلَب على صبره.

وإذْ يُوَدِّع زِرْياب الصفحة الأولى مِن حياته، عند هذا الحدّ، ليستقبل صفحةً جديدة عندما قال له أستاذه إسحاق: يا عليّ، إنّ الحَسَد أَقْدَم

---

(٢) البَمّ مِن العُود: أَغْلَظ أوتاره، وله أغْلَظ أصواته.

(٣) اخترع زِرْياب مِضْراب العُود مِن قَوادِمِ النَسْر، بعد أن كان يُتَّخَذ مِن الخشب. فأَبْرَع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفّته على الأصابع، وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إيّاه.

الأدواء، والدنيا فَتّانة، والشَركة في الصناعة عداوة، ولا حيلة في حَسْمِها. وقد مكرتَ بي فيما انطويتَ عليه مِن إجادتكَ وعُلُوّ طَبَقَتِكَ. وقَصَدْتُ مَنْفَعَتَكَ، فإذا أنا قد أُوتيتُ نفسي مِن مأمنِها بإدْنائكَ، وعن قليلٍ تَسْقُطُ منزلتي وترتقي أنتَ، وهذا ما لا أُصاحِبُكَ عليه ولو أنّكَ ولدي. ولولا رَعْيي لذمّة تربيتكَ، لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك، يكون في ذلك ما كان، فَتَخَيَّر في ثِنْتَيْن لا بدَّ لكَ منهما: إمّا أن تذهب عنّي في الأرض العريضة، لا أسمع لكَ خبراً، بعد أن تعطِيَني على ذلك الأيمان المُوَثَّقة، وأُنْهِضُك لذلك بما أردتَ مِن مالٍ وما تشتهيه نفسُك، وإمّا أن تقيم على كُرْهي ورغمي مستهدِفاً إليَّ. فَخُذِ الآن حَذَرَكَ منّي. فلستُ والله أبقي عليكَ، ولا أدع اغتيالكَ، باذلاً في ذلك بدني ومالي. فاقضِ قضاءَكَ.

وَدَّع زِرْياب هذه الصفحة مِن حياته الملأى بالأَلَم والخَيْبَة، ليستقبل صفحةً مُشْرِقةً بالأمل والرَجاء، يَعْلو شأنه فيها، ويتألّق نَجْمُهُ في بلدٍ بعيدٍ عن بلده، وحكّامهُ في عِداءٍ مع حُكّام بلدِهِ بغداد. فيجمع نفسَهُ ويخرج لوقته مع وُلْدِهِ وأهلِهِ مِن بغداد، واختار الفرار، وأعانه اسحاق نفسُهُ على ذلك سريعاً. ومَضَى يبغي مَغْرِبَ الشمس. واستراح قلب اسحاق منه. وتَذَكَّرهُ الرشيد بعد فراغِهِ مِن شُغلٍ كان يَشْغَلُهُ. فأَمَرَ اسحاق بحضوره. فقال: ومَن لي به يا أمير المؤمنين؟ ذلك غلامٌ مجنونٌ، يَزْعَمُ أنّ الجنّ تكلّمهُ وتطارحُهُ ما يُزْهي به مِن غنائه، فما يَرَى في الدنيا مَن يَعْدِلُهُ، وما هو إلاّ أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين، فَرَحَل مُغاضباً ذاهباً على وجهِهِ، مستخفياً عنّي. فسَكَنَ الرشيد الى قَوْل اسحاق.

ومَضَى زِرْياب الى المَغْرب، فَنُسِيَ بالمَشْرِق خبره، وبدأ حياة جديدة مُشْرِقة بجلائل الأعمال في الجزيرة الخضراء - الأندلس -، لسنا بصددها هاهنا.

كان زرْياب ضليعاً في آفاق الموسيقى[٤]، يحفظ عشرة آلاف مقطوعة مِن

---

(٤) زاد في أوتار عُوده وَتَراً خامساً اختراعاً منه، إذ كان العُود حتى زمنه، ذا أربعة أوتار على الصفة القديمة التي قُوبلت بها الطبائع الأربع للإنسان - كما يَعزُوها أهل الصَنْعة والفنّ - فلمّا زاد عليها وتراً خامساً، اكتسب عُوده أَلطَف معنىً وأكمل فائدة.

الأغاني بألحانها[٥].

وكان الى تمهّره بالموسيقى والغِناء، عالماً بالفَلَك وقِسْمة الأقاليم السبعة، واختلاف طبائعها وأهويتها، وتَشَعُّب بحارها، وتصنيف بلادها وسكّانها.

انّ التحدّث عن هذا العبقريّ الفذّ، أمرٌ لا يُحَدّ. ظَلَّ أحدوثة الزمان في كلّ مكان[٦]. وإليه يرجع الفضل في كثيرٍ مِن جوانب الحضارة العالمية.

---

(٥) هذا، ما ساعد على حلّ كتاب الموسيقى لبطليموس. لأنَّ هذا العدد مِن الألحان، هو غاية ما ذكره بطليموس - واضع هذه العلوم ومؤلّفها - في كتابه.

(٦) توفّي في الأندلس، سنة ٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م.

معارض الأزهار والأشجار

تزخر كُتُب التراث العربي، بأخبار الأزهار والأشجار والبساتين.
والمشهور في التاريخ، انّ أكثر القوم عناية بأمر إنشاء البساتين يوم ذاك، والوُلُوع في تَنْسيقها، هم الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء، وأعيان الناس وأماثلهم مِن ذوي المال والغِنَى.

حَكَى المؤرِّخون عن الخليفة القاهر[1] بالله العبّاسي، أنَّ لَذَّتَهُ من الدنيا كانت بستانه الكبير ببغداد، الذي غُرِسَ فيه النارَنْج. وحُمِل إليه مِن البصرة وعُمان فنوناً منه، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم، وعُرِف ببستان النارنج، وبَيْن ذلك أنواع الغُرُوس والرياحين والزَهْر. وقد جَعَل في صَحْن القصر أنواع الأطيار[2]، مِمّا قد جُلِب إليه مِن الممالك والأمصار. فكان ذلك في غاية الحُسْن. وكان القاهر كثير الشُرْب عليه، والجلوس في تلك المجالس.

وكان في البستان المحيط بالجَوْسَق مِن قصر الخليفة المقتدر بالله، ببغداد نحو أربعمائة نخلة، طول كلّ واحدة خمسة أذرع، قد أُلْبِس جميعها ساجاً منقوشاً، مِن أَصْلها الى حَدِّ الجُمّارة، بِحلَقٍ مِن شَبَه مُذْهَبَة.

وغالَى القوم ببغداد يوم ذاك، وتَفَنَّنُوا بأمور الفاكهة، فكانوا يُؤْثِرُون

---

(١) خلافته: (٣٢٠ - ٣٢٢هـ = ٩٣٢ - ٩٣٤م).
(٢) راجع البحث الموسوم بـ «حدائق الحيوان» في كتابنا هذا.

الكتابة والنَقْش والتصوير على التفّاح، لطِيب رائحته، وبهجة لونه، ولُطْفِ موقعه مِن الإهداء. ولهم في الكتابة والنقش والتصوير طرائق مختلفة:

الأولى: «أن يُعْمَد الى الشمع فيُداف، وتُصْنَع منه تماثيل وحروف أو نقوش. وتُلْصَق على التفّاحة وهي خضراء قبل إحمرارها. أو تُميع الشمع كثيراً وتكتب به عليها قَبْل إحمرارها، فانّها إذا انتهت، بقي ما تحت الشمع أصفر، واحمرّ منها ما سوى ذلك».

الثانية: «إذا أردتَ أن تنقش التفّاح الأحمر، فاكتب عليه وهو أخضر ما أحببتَ، بالمداد، واتركه. فإذا احمرّ، فامحُ عنه المداد، تجد مواضع الكتب أبيض حسناً».

الثالثة: «أن يُقَصّ مِن ورق الكاغد شكل كتابة، أيّ كتابة شئت. وتلصق تلك الكتابة على التفّاحة إذا بلغت نصف عِظَمها أو أقلّ. في سواء إلصاقاً محكماً. وتُتْرَك حتّى تبلغ الثمرة. فينزع عنها الورق. فإنّه يوجد ما تحته أصفر لم تصل إليه حرارة الشمس فتصبغه صبغ بقية الثمرة، فتبقى كتابته طبيعية ظاهرة مخالفة للون سائر الثمرة»[٣].

وكان الناس ببغداد يكتبون بحمرة في بياض. أو ببياض في حمرة. والتفّاح بعد في أغصانه. وذلك بأن يعرّضوا موضع الكتابة للشمس إذا كان التفّاح أبيض، أو يستروه بالمداذ إذا كان أحمر[٤].

وكان الظُرفاء والظِراف ببغداد، يتراسلون بالتفّاح الأحمر بعد قطفه. وهو في الأسواق. ومِن لطيف ما يُنْقَل عنهم، إنّهم يَعْمَدُون الى الكتابة على التفّاح بماء الذهب، إشارة الى الصُفْرة والنُحُول مِن الوُجْد. والجواب عليه بالمِدَاد الأَسْوَد، إيذاناً بالنُفُور والصَدّ والهِجْران.

ومِن التفّاح الأصفر الذي كُتب عليه بالأحمر:

تفّـــاحــة تخـــبر عن مهجـــة أذابهـــا الهجر وأضنـــاهـــا

---

(٣) (٤) كَتَب حبيب زَيّات مقالاً ممتعاً، بعنوان «الفواكه المكتوبة أو المُصَوَّرة في الشرق»: (الخزانة الشرقية ٣: ٤٦ - ٤٨). وقد أفَدْنا منه كثيراً.

يا بؤسها، ماذا بها؟ وَيْلها أبْعدها الحبّ فأقصاها

وكُتب ببياض في حمرة:

نبتٌّ في الأغصان مخلوقةً مِن قَلْب ذي شوق وأحزان

صَفَّرني سقم الذي لونه يخبر عن حالي وأشجاني

حدائق الحيوان

اتُّخِذَت الحيوانات الكاسرة في بَدء الأمر، لِلَّهْو فقط. ثمّ جاء خلفاء بني العبّاس، فاتّخذها الأوائل منهم لإقامة الهيبة، وحِفْظ نظام المملكة، وحراستها مِن أطماع الطامعين[١]، فارتبطوا الأُسُود والفِيَلَة والنُمُور[٢].

ذَكر المؤرّخون أنّ الخليفة المنصور «عُني بجَمْع الفِيَلَة، لتعظيم الملوك السالفة إياها، واقتنائها لها، وإعدادها للحروب، والزينة في الأَعْياد وغيرها، وانّها أوطأ مراكب الملوك وأمهرها»[٣]. وكان للرشيد أقفاصٌ فيها الأُسُود والنمور وغيرها.

ثمّ تَطَوَّر الأمر مِن بَعْد ذلك، فعُني غير واحدٍ مِن خلفاء بني العبّاس، والأمراء، والسلاطين، وأعيان القوم ببغداد، بتخصيص محلّ واسع الأرجاء يضمّ جملة مِن أصناف الحيوانات: الكاسرة، والداجنة، والطير، والهوام، والحشرات. ويُطْلَق على ذلك المكان «حَيْر الوحش أو الوحوش». ثمّ حذفوا المضاف إليه استغناءً بالمضاف.

---

(١) و(٢) ذَكَر غير واحدٍ مِن المؤرّخين، انّ «الملوك كانوا يبالغون في إقامة الهيبة والناموس، حتّى بارتباط الأُسُود والفِيَلَة والنمور،... وكان عَضُد الدولة [البُوَيْهي] إذا جَلَس على سريره، أُحْضِرَت الأُسُود والفِيَلَة والنُمُور في السلاسل، وجُعلت في حواشي مجلسه تهويلاً بذلك على الناس وترويعاً لهم»:
العقد الفريد (١:١٥٠)، الفخري في الآداب السلطانية والدُوَل الإسلامية (ص٣٠).
وراجع في هذا الشأن: عبد الفتّاح عباده: «وُلوع الملوك والعظماء بالحيوانات ونوادرهم الغريبة في التاريخ»: (مجلّة «الهلال» ٢٩ [القاهرة - ٤ يناير ١٩٢١] ج٤، ص٣٦٩ - ٣٧٥).

(٣) مروج الذهب (٣:١٨ - ٢١).

فالحَيْر: بستان واسع، فيه أنواع الحيوان. والعرب سبقوا الأمم المتمدّنة الى اتّخاذ تلك الحظائر لحَبْس الوحوش والحيوانات فيها، ودَرْس أخلاقها وعاداتها، مع التفرّج على ما هنالك مِن عجيب المخلوق[٤].

ولمّا أَفْضَت الخلافة الى الأمين، وَجَّه الى جميع البلدان في طَلَب الوحوش والسباع والطَيْر[٥]، وغير ذلك.

ولشدّة وَلَعه بجَمْع الحيوان، أَمَر بعمل خمس حَرَّاقات[٦] في دجلة، وجَعَلَها على خِلْقة: الأَسَد، والفيل، والعُقاب، والحَيّة، والفرس. وأَنفق في عملها مالاً عظيماً[٧].

وكان يَتَرَدَّد كثيراً على حَيْر الوحش، ومعه ابراهيم بن المهدي. قال شاهد عيان: «...انّ ابراهيم غَنَّى يومئذٍ على أَشَدّ طبقةٍ يُتَنَاهَى إليها في العُود، وما سَمِعْتُ مثل غنائه يومئذٍ قطّ: ولقد رأيتُ منه شيئاً عجيباً لو حُدِّثْتُ به ما صَدَّقْتُ. كان إذا ابتدأ يُغَنّي صَفَتِ الوحش إليه ومَدَّت أعناقها، ولم تَزَل تدنو مِنّا حتّى تكاد أن تضع رؤوسها على الدكان[٨] الذي كنّا عليه، فإذا سَكَتَ نَفَرَت وبَعُدَت عنّا حتى تنتهي الى أبعد غاية يمكنها التباعد عنّا فيها. وجعل الأمين يَعْجَب مِن ذلك»[٩].

وولع الأمين أيضاً بالغرَيب مِن السَمَك. قال المسعودي: «وذكر ابراهيم ابن المهدي، قال: استأذنتُ على الأمين يوماً، وقد اشتدّ الحصار عليه مِن كلّ وجه، فأبوا أن يأذنوا لي بالدخول عليه إلى أن كابرتُ ودخلتُ، فإذا هو قد تَطَلَّع الى دجلة بالشُبَّاك. وكان في وسط القصر بركة عظيمة لها منخرق للماء الى دجلة، في المنخرق شبّاك حديد. فسَلَّمْتُ عليه وهو مقبل على الماء،

---

(٤) راجع: الأب أنستاس ماري الكرملي: (مجلّة «الزهراء» ٢[القاهرة - ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م] ج٨، ص٤٨٨ - ٤٩٢: حَيْر الوحش: حديقة الحيوانات)، نقلاً عن كتابه «حَشْو اللُوزينج» ص٢٧٨ - ٢٧٩؛ مخطوط. (والمقال بتوقيع «فهر الجابري» وهو اسم مستعار للأب الكرملي).

(٥) و(٦) تاريخ الرسل والملوك (٣:٩٥١)، تاريخ الخلفاء: للسيوطي (ص:٢٠٠).

(٧) الحَرَّاقات، جَمْع الحَرَّاقة: ضَرْب مِن السفن. راجع بشأنها: (معجم المراكب والسفن في الإسلام، ص٣٣٠ - ٣٣١).

(٨) الدكّان: الدكّة أو المصطبة.

(٩) الأغاني (١٠:١٠٩ - ١١١)، النجوم الزاهرة (٢:٢٤١)، نهاية الأرب (٥:٢١٠ «ط٢).
وراجع البحث الموسوم بـ «مجالس الغِناء والموسيقى والمَرَح» في كتابنا هذا.

والخدم والغلمان قد انتشروا الى تفتيش الماء في البركة، وهو كالواله. فقال لي وقد ثنيتُ بالسلام عليه وكَرَّرْتُ: لا تدري يا عمّ، فمقرّطتي قد ذَهَبت مِن البركة الى دجلة. والمقرّطة سمكة كانت قد اصْطِيدَت له وهي صغيرة، فقرَّطها بِحلَقَتَي ذَهَب فيهما حبَّتا درّ وقيل ياقوت...»[١٠].

ولمّا انتقل المأمون الى القصر المعروف بـِ «الجَعْفَري»[١١] في الجانب الشرقي مِن بغداد على شاطىء دجلة، ذلك القصر الذي لازمه التجديد والزيادة على مرّ السنين[١٢]، وكان مِن أحبّ المواضع إليه وأشهاها لديه. اقتطع جملةً مِن البريّة عملها ميداناً لركض الخيل، واللعب بالصوالجة، وحَيْراً لجميع الوحوش، وفتح له باباً شرقياً الى جانب البريّة، وأجرى فيه نهراً صغيراً[١٣].

ولازمت العناية حَيْر الوحش ببغداد، حتّى أضحى متّصلاً بدار الخلافة[١٤]. ولمّا قَدِم رُسُل ملك[١٥] الروم، الى بغداد، في سنة خمسٍ وثلثمائة للهجرة (=٩١٧ م)، أيّام الخليفة العبّاسي المقتدر بالله، شاهدوا مِن عظمة بغداد يوم ذاك، ما أذْهَشَهُم وحَيَّر ألبابهم، خاصة دار الخلافة التي ظهرت بأَبْهَى زِينة وأكْمل عُدَّة. فأُدْخِلوا الى الدار المعروفة بخان[١٦] الخيل مِن دار الخلافة، وساروا في الممرَّات والدهاليز المتّصِلة بِحَيْر الوحش، وكان في هذه الدار، مِن أصناف الوحش التي أُخرِجَت إليها مِن الحَيْر، قُطْعَانٌ تَقْرُب من

---

(١٠) مروج الذهب (٦: ٤٣١).

(١١) بناه جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي. وأنفق عليه الأموال الجمّة. أنظر: معجم البلدان (١: ٨٠٦ - ٨٠٩).

(١٢) مقدّمة تاريخ بغداد: للخطيب (ص٤٧ - ٤٨، ٥٣)، المنتظم (٥ ب: ١٤٣ - ١٤٤).

(١٣) معجم البلدان (١: ٨٠٧).

(١٤) رُسُوم دار الخلافة (ص٧).

(١٥) بَعَث ملك الروم قسطنطين Constantins VII Porphyrogenitus رسوله الى بغداد، يلتمس المهادنة والفداء من الخليفة العبّاسي المقتدر بالله.
راجع مفصّل ذلك في: رُسُوم دار الخلافة (ص١١ - ١٤)، مقدّمة تاريخ بغداد (ص٤٩ - ٥٦).

(١٦) ذكرها ياقوت في مادة «دار الخَيْل». قال: «مِن دُور الخلافة المعظّمة ببغداد. كانت داراً عظيمة الأرجاء عادية البناء، لها صَحْنٌ عظيم ألْف ذراع في ألْف ذراع، كان يوقّف فيها في الأعياد، وعند ورود الرُسُل مِن البلاد، في كلّ جانب منها، خمسمائة فرس بالمراكب الذهب والفضّة، كلّ فرس منها على يد شاكريّ»: (معجم البلدان: ٢: ٥١٨).

النـاس وتَتَشَمَّمُهم، وتأكل مِن أيديهم. ثمّ أُخرِجوا الى دار فيها أربعة فِيَلَة مُزَيَّنَة بالدّيباج، والوَشْيِ، وعلى كلّ فيل ثمانية نَفَرٍ مِن السِنْد والزرّاقين بالنار. فهال الرُسُل أمرها. ثمّ أُخرِجوا إلى دارٍ فيها مئة سَبْع، خمسون يَمْنَةً، وخمسون يَسْرَةً، كلّ سَبْعٍ منها في يدِ سَبَّاع، وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد[17]، وشاهدوا الزَرافة، والفُهُود، وحيوانات أخرى كثيرة.

واشتهرت حديقة الحيوان للوزير ابن مُقْلَة ببغداد. وخبرها طريف للغاية، لما كانت عليه مِن النَضْرَة والبَهْجة والبَهاء. حكى شاهد عيان، انّه رأى الشَبَكَة الإبريسم التي كان أفْرَخ فيها ابن مُقْلَة الطيور الغريبة. قال: فَعَمَد الى مربّع كبير فيه بستان عظيم عدّة أَجْرِبَة[18] شجر بلا نخل، فقطع منه قطعة مِن زاوية. فكان مقدار ذلك جَرِيبَيْن بشِباك إبريسم، وعَمِل في الحائط بيوتاً تأوَى إليها الطيور وتفرّخ فيها. ثمّ أطلق فيها القَمَاري والـدَبَـاسِي والنُوبيـات والشحـارير والزِرْيـاب والهَزار والببَّـغ والقَبْـج والفواخِت، والطيور التي مِن أقاصي البلاد، مِن المُصَوّتة ومِن المليحة الريش، ممّا لا يكسر بعضه بعضا. فتوالدت، وجاءت بأجناس غريبة. ثمّ عَمَدَ الى باقي الصَحْن، فَطَرح فيه الطيور التي لا تطير، كالطَواويس والبَطّ. وعَمِل مِنْطَقَة أقفاص، فيها فاخر الطيور، وجَعَل مِن خَلْف البستان: الغِزْلان والنَعَام والأيايل والأرانب والإبل والبقر البَدَوية وحُمُر الوحش. ولكلّ صَحْن أبوابٌ تنفتح الى الصحن الآخر، فيرى مِن مجلسه سائر ذلك[19].

وبشّر يوماً بأنَّ طائراً بحرياً وقع على طائر برّي، فازدوجا وباضا وأفقسا، فأعطى مَن بَشّره بذلك مئة دينار ببشارته[20].

---

(١٧) مقدّمة تاريخ بغداد (ص٥٣). المنتظم (٦:١٤٤).

(١٨) أي: فدادين.

(١٩) تجارب الأمم (٥:٢٠٢ - ٢٠٣)، تاريخ الإسلام: للذهبي (في ترجمة «ابن مُقْلَة» سنة ٣٢٨ هـ)، البداية والنهاية (١١:١٩٥).

وراجع البحث الموسوم بـ «هندسة البناء» في كتابنا هذا.

(٢٠) المنتظم (٦:٣١٠)، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١:١٦٦).

ونظير تلك، بستان الطير للخليفة القاهر بالله العبّاسي. قال المؤرّخون: انّ لَذَّته مِن الدنيا كانت بستانه[٢١] الكبير ببغداد. كان نحو مِن جريب، قد غُرِس فيه النارنج، وحُمِل إليه من البصرة وعُمَان مِمَّا حُمِل مِن أرض الهند، قد اشتبكت أشجاره، ولاحت ثماره كالنجوم مِن أحمر وأصفر، وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزَهْر. وقد جعَل في ذلك الصَحْن أنواع الأطيار: مِن القَماري والدَبَاسي والشَحارير والببَّغ، مِمَّا قد جُلب إليه مِن الممالك والأمصار. فكان ذلك في غاية الحُسْن. ولمّا أفْضَت الخلافة الى الراضي[٢٢] بالله، اشتدَّ شغفه بذلك الموضع، فكان يداوم الجلوس فيه[٢٣].

وذَكَر المؤرِّخون عن بسْتان الحيوان ببغداد: لابن بَسَّام. قال المسعودي: «هو عليّ بن محمد بن بسّام...، وقد كان أبوه محمد بن نصر بن منصور، في نهاية السرو والمروءة. وكان رجلاً مترفاً حسن الزيّ، ظاهر المروءة، مشغوفاً بالبناء. ذكر أبو عبدالله القميّ، قال:... ودخلتُ عليه في بعض الأيّام، وهو جالس على موضع في آخِر داره، وقد رفعه على بركة، وفي صدره صُفَّة[٢٤] وهو يشرف منها على البستان وعلى حَيْر الغزلان، وحظيرة القماري وأشباهها. فقلتُ له: يا أبا جعفر أنتَ والله جالس في الجنّة...»[٢٥]

ووَرَدَت أخبار، بشأن النَفَقَة على حَيْر الوحش بدار الخلافة العباسية ببغداد، وأرزاق مَن يعمل فيه، ونحو ذلك، في «العَمَل»[٢٦] الذي عمله أحمد بن محمد الطائي[٢٧]، أيّام الخليفة المعتضد بالله. فمِمّا جاء فيه:

«أرزاق أصحاب الصيد مِن البازياريّين والفَهّادين والكلابزيّين والصَقَّارين والصيّادين. وثمن الطُعْم والعلاج للجوارح وأصحاب الحراب والسبّاعين وأصحاب الشِباك واللبابيد والفَحَّالين، ومَن معهم

(٢١) راجع البحث الموسوم بـ «معارض الأزهار والأشجار» في كتابنا هذا.
(٢٢) خلافته: (٣٢٢ - ٣٢٩هـ = ٩٣٤ - ٩٤٠م).
(٢٣) مروج الذهب (٨: ٣٣٦ - ٣٣٧).
(٢٤) الصُفَّة: بيت صيفي يكون مسقوفاً بجريد النخل ونحوه.
(٢٥) مروج الذهب (٨: ٢٦٩).
(٢٦) راجع البحث الموسوم بـ «ميزانية بغداد قبل ألف ومئة سنة» في كتابنا هذا.
(٢٧) أخباره في: المنتظم (٥: ٨٠)، الأعلام (١: ١٩٥).

مِن الأعوان والحمّالين، وأصحاب المرور وغيرهم: في كلّ شهر أيّامهُ خمسة ثلاثون يوماً، مِن جملة أَلْفَيْن وخمس مئة دينار في الشهر. ومع القسط مِن خمسين ديناراً لتجديد آلاتها سبعين ديناراً »[٢٨].

وكذلك في « العَمَل » الذي عمله الوزير عليّ بن عيسى، لارتفاع[٢٩] المملكة، في سنة ستّ وثلثمائة، ونَعَى به الدنيا بتقاصر مَوادّها وتناقص أموالها. فمِمَّا جاء فيه:

« ...وعلوفة الكُراع والطَيْر والوحش،...
لشهرٍ: أربعة وأربعين ألفاً وسبعين ديناراً.
ولاثني عشر شهراً: خمسمائة ألْف وثمانية وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين ديناراً.

ومِن ذلك النفقات التي تُطْلَق دائماً في كلّ سنة لثمن الجوارح، وكسوة الكُراع، وهَناء الإبل، و...:
اثنين وأربعين ألفاً وسبعة دنانير،... »[٣٠]

وذَكَر هلال الصابىء في جملة أخبار «أبي الحسن عليّ بن عيسى بن داود ابن الجرّاح المنثورة »، قال: « ...كان أبو بكر بن مقاتل يَتَوَلَّى كَيْل ما يرد مِن الشعير للقضيم واستيفاءَهُ، فيبقى عليه في أسافل الزواريق مِن الرطب والعفن، ما يُباع بثمنٍ بَخْسٍ...، فاتّفق أن حَضَرَ الناظر في أمور الجوارح والطيور، يلتمس إطلاق علوفة البطّ في البرك والزُبيدية، وقَدْرهُ ذلك ثلاثون قفيزاً شعيراً في كلّ شهر... »[٣١].

* * *

هذا قليل مِن كثير مِن أَمْر حدائق الحيوانات ببغداد في العصور

---

(٢٨) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص١٩).
(٢٩) الارتفاع: مبلغ ما يتحصَّل مِن المال لديوانٍ من دواوين الدولة. أو:هو مجموع الأموال الديوانية كلّها.
(٣٠) رسوم دار الخلافة (ص٢١ - ٢٢، ٢٤ - ٢٥).
(٣١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص٣٥١).

الإسلامية السالفة. وقد تركنا جانباً، حدائق الحيوان التي كانت بسامراء، وفي البصرة، ومصر، وفي مدينة الزهراء بالأندلس، وغيرها مِن المدن والأمصار في ديار الإسلام، فذاك أمر يخرج عَمَّا نحن فيه.

حَمَّامات بغداد في العصر العباسي (وما قِيل فيها مِن أقوال ومبالغات)

لا تخلو كُتُب التاريخ القديمة، مِن إحصاءات وأرقام، أَغربَ المؤرّخون بنَقْلها على عِلاّتها، في سياقة الحوادث، وتَقْدير الوقائع، وأرسلوها على عَوَاهنها دون أَقَلّ نَظَرٍ أو استرابةٍ لها. ولم يَكْتَفُوا بالتقليد والنَسْخ، بل تباروا في المبالغة والتهويل، حتّى ربّما بَلَغَت زيادة الواحد على الآخر أضعاف الأضعاف. والأمثال على هذه المجازفات والمبالغات، وافرة جداً[1]. فلا بدّ مِن الاقتصار منها، على مختارات يسيرة.

ولعلّ رواية حَمّامات بغداد، ومساجدها، أيّام بني العبّاس، تحتلّ الصدارة في ميدان المبالغة والمجازفة، في الأرقام.

ولإثنين مِن المؤرِّخين، قِسْطٌ وافر في هذا الشأن. ونعني بهما: يَزْدَجِرْد بن مَهْمَنْدار. كان حَيّاً في النصف الثاني مِن المئة الثالثة للهجرة.

والخطيب البغدادي، المتوفَّى سنة ثلاثٍ وستين وأربعمائة للهجرة.

كان يَزْدَجِرِد على عهد الخليفتَيْن: المعتضد بالله، والمقتدر بالله. وصَنَّف كتاباً أَسماه « فضائل بغداد العراق »: إلْتَمَسَ فيه وَصْف بغداد، وإحصاء ما فيها مِن المساجد والحمّامات، والأبنية والشوارع والدروب، وكِبَرَ البلد،

---

(١) لحبيب زيّات. مقال بعنوان «المجازفة بالأرقام في التاريخ»: (مجلّة «المشرق» ٣١[بيروت ١٩٣٣] ص١٦١ - ١٦٧). فليُراجَع.

وعدد مَن يحتوي عليه من الناس والسفن والملاّحين، وما يُحتاج إليه في كلّ يوم مِن الحنطة والشعير والأقوات ونحو ذلك. وقد ضاع هذا الكتاب مع ما ضاع مِن الأسفار النفيسة، ولم يَنْتَهِ إلينا منه سوى فصل خاصّ بحمّامات بغداد[٢]، نَقَلَهُ عنه مؤرّخ آخر، هو: هلال[٣] بن المُحَسِّن الصابىء، المتوفّى ببغداد سنة ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م.

ولنعد الى يَزْدَجِرْد، ليحدّثنا عن حَمَّامات بغداد يوم ذاك، وما قيل فيها مِن أقوال ومبالغات. قال: «قد أكثر الناسُ في بغداد العراق، إكثاراً لم يُعْطُونا فيه دليلاً، ولا أفادُونا به محصولا، واقتصروا على أن يقولوا: بَلَدٌ لا يُشْبِهُ البلدان، ولا كان مِثْلُهُ في قديم الأزمان[٤]. فإنَّ مِن أَقَلِّ ما فيه، انّه يَشْتَمِل على مائتي ألف حَمَّام، الى الضِعْف، ومِن المساجد والطِرازات[٥]، كذاك الى ما هو مُتَضاعِفٌ. فإذا أُخِذُوا أو أكثرهم بإيراد الحُجَّة، وإقامة الدَّلالة، لم يأتوا بقولٍ مُحَصَّل وبرهان معقول».

ثمّ يَسْعَى يَزْدَجِرْد ليكون مُنْصِفاً فيما كَتَبَهُ، إذْ قال: «ونحن نَفْتتح القولَ باتّباع أعْدل الأحكام، وأقرب الأمور الى الأَفهام، ولا نقول كالذي قالوه في عدد الحمّامات، واعتقدوه في المنازل والمساجد والطِرازات، اشفاقاً مِن هِجْنَة الإسراف على السامعين. فإنَّا وَجَدْنا كثيراً مِن الخاصَّة والعامَّة، مذعنين بعِدَّة الحمّامات، وانّها مائتا ألف حَمَّام، دون ما فوقها من الزيادات. ثمّ قال آخرون: بل هي مائة وثلاثون أَلْف حَمَّام، كما قالوا: مائة وعشرون أَلْفاً. وبه

---

(٢) نشرناه أولاً في («مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق» ١٩ [١٩٤٤] ص٣٢٢ - ٣٣١). ثمّ أفردناه في رسالة قائمة بذاتها (مطـ المعارف - بغداد ١٩٤٧، ١٨ ص).
ثمّ عُدنا إليه بالشرح والتهذيب والتحقيق (مطـ الإرشاد - بغداد ١٩٦٢، ٢٢ ص).

(٣) في كتابه «رُسُوم دار الخلافة» (ص١٨ - ٢١).

(٤) قال الخطيب البغدادي: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميّز خواصّها وعوامّها، وعظم أقطارها، وسعة أطرارها، وكثرة دُورها ومنازلها، ودروبها وشوارعها، ومحالّها، وأسواقها، وسككها، وأزقّتها، ومساجدها، وحَمَّاماتها، وطرزها، وخاناتها، وطيب هوائها، وعذوبة مائها، وبَرْد ظلالها وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحّة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدّة سكّانها. وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيّام الرشيد،...»: (مقدّمة تاريخ بغداد، ص٧٦ - ٧٧).

(٥) الطرازات والطُرُز. جمْع الطراز: وهو الموضع الذي تُنْسَج فيه الثياب الجيدّة. وهو مُعَرَّب. راجع الحاشية (٣٦) في البحث الموسوم بـ «ميزانية بغداد قَبْل أَلْفِ ومئة سنة» في كتابنا هذا.

قال الشاه[٦] بن ميكال، وطاهر[٧] بن محمد الطاهري. ثمّ قالوا مِن قَبْلُ ومِن بَعْد بما زاد على المئة أَلْف، وبما نقص منها، قَرَّرْنا اختلافَهم على حَدٍّ نرجوه عَدْلاً متوسِّطاً، وحَكَماً مُتَقَبَّلاً. واقتصرنا مِن عدد الحمَّامات على ستّين أَلْفَ حمَّام، استظهاراً، وجَعَلْنا العِلّة في ذلك أن نأخذ وَسَط ما ذكروه مِن أعدادها، وما وَجَدْنا الخاصَّة وأكثرهم يدّعيه في إعتقادها، وهو مئةٌ وعشرون أَلْف حمّام، فاقتصرنا على النصف مِن المئة والعشرين، لئلاَّ يَقْبحُ في التقدير، أو تضيق عن قبوله الصُدور. ثمّ نظرنا في قَدَر ما يَحْتاج إليه كلّ حمَّام مِن القُوَّام[٨] الذين لا قِوَام له إلاّ بهم. فوجدنا الحمّام مُحتاجاً الى ستّة نَفَرٍ، هم: صاحب الصُنْدُوق، والقَيِّم، والوَقَّاد، والزَبَّال، والمُزَيِّن، والحَجَّام، وربّما أُطاف بالحمّام ضعف هذا العدد، ولكنّا ركِبْنا سَنَن[٩] الإستظهار في معنانا هذا. فإذا فَرَضْنا عِدَّة الحمّامات ستّين ألف حمَّام، فقد حَصَل عدد ما فيها مِن القُوَّام والمزيّنين والحَجَّامين: ثلثمائة وستّين أَلْف إنسان، ثمّ فَرَضْنا بهذا التقريب لكلّ حمَّام مائتي منزل قياساً، على ما حَصَل من المنازل على عِدّة الحمّامات بمدينة أمير المؤمنين المنصور، صلوات الله عليه، وهو لكلّ حمَّام أربعمائة منزل، واستظهاراً بأَخْذ النصف مِن ذاك، فاجتمع مِن عدد المنازل على هذه الفريضة إثنا عشر أَلْف أَلف منزل[١٠]. ثمّ وَجَدْنا، قد يجتمع في المنزل الواحد عشرون نفساً، وفي غيره نفسان أو ثلاثة، وما هو أقَلّ مِن ذلك وأكثر، فاحْتَجْنا إلى أن نَفْرِض عدداً متوسِّطاً يَعْتَدِل به الأمر، ويزول معه الشكّ، فَنَقَصْنا مِن العشرين نِصْفها، وزِدْنا على الثلاثة ضِعْفها، وجَمَعْنا ما بَقَّيْنا، وزِدْنا، فكان ستَّة عَشَر، وأَخذنا النِصْف، فكان: ثمانية نَفَرٍ بين رجالٍ ونساءٍ وأكابر وأصاغر. فاجْتَمَع لنا مِن عَدَد مَن تَضمُّه

---

(٦) هو مولى طاهر بن الحسين. كان من القُوَّاد البارزين في النصف الثاني من المئة الثالثة للهجرة. خدم جملة من خلفاء بني العبّاس، هم: المستعين والمعتزّ والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي. توفّي سنة ٣٠٢هـ = ٩١٤م. وهو مِمَّن مدحهم البحتري.

(٧) طاهر بن محمد بن عبدالله بن طاهر. أخباره في: تاريخ الرسل والملوك (٣:١٦٦٧ - ١٦٩١)، الكامل في التاريخ (٧:١٢١).

(٨) القُوَّام، جَمْع القائم. والقائم على الأمر مُتولّيه.

(٩) السَنَن: الوجه. يُقال: استقام فلان على سَنَنٍ واحدٍ، أي على وَجْه واحد.

(١٠) أي ١٢ مليون منزل!..

هذه المنازل: ستّةٌ وتسعون ألفَ ألفِ إنسان»[11].

ثمّ ركَّب مُصَنِّف هذا الكتاب مِن هذه القاعدة قياساً، فيما يُريده هذا العدد مِن الناس، مِن أصناف المأكول، والمُسْتَعْمَل واللباس[12].

وعلّق فريق مِن الكَتَبَة والمؤرّخين على كلام (يَزْدَجِرْد) هذا. فمنهم مَن قال: إنّ الحمّامات أُحصِيت في أيّام مُعِزّ الدولة البُوَيْهي، فكانت سبعة عشر ألف حَمَّام، وأنّهم عَجِبوا مِن انتهائها الى هذه العِدّة، مع كَوْنها في أيّام المقتدر بالله: سبعة وعشرين أَلْف حَمَّام. ثمّ قالوا: ولقد عُدَّت في أيّام عَضُد الدولة البُوَيْهي، فكانت خمسة آلاف وكسراً. وفي أيّام بَهاء[13] الدولة، سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، فكانت ألفاً وخمسمائة حَمَّام ونَيِّفاً. وحَكَى آخر يقول: وهي الآن مئة ونيّف وخمسون حَمَّاماً.

أمّا الخطيب البغدادي، مؤلِّف «تاريخ بغداد». فقد ذَهَب مَذْهباً آخر في المبالغة، حين نَقَل عن محمد بن يحيى النديم، انّ عَدَد الحمّامات كانت في ذلك الوقت، ببغداد: ستّين أَلْف حَمَّام، وقال: أقلُّ ما يكون في كلّ حَمَّام خمسة نفر: حَمَّاميّ، وقَيِّم، وزَبَّال، وَوَقَّاد، وسَقَّاء. يكون ذلك ثلثمائة أَلْف رجل. وذَكَر انّه يكون بإزاء كلّ حَمَّام: خمسة مساجد، يكون ذلك ثلثمائة ألف مسجد، وتقدير ذلك أن يكون أقلّ ما يكون في كلّ مسجدٍ خمسة أَنْفُس. يكون ذلك أَلْفَ أَلْفِ وخمسمائة ألف إنسان. - قلنا: معنى ذلك إنّ ما تضمّه مساجد بغداد مِن الأَنْفُس يوم ذاك: مَلْيوناً ونصف مَلْيون مِن الأَنْفُس!.. وهذا غاية في المبالغة والبُعد عن الحقيقة. حتّى أنّ (الذَّهبي) المؤرّخ الشهير، تملّكه العجب مِن تلك الأرقام - الخيالية -، فقال: كذا نَقَل الخطيب في تاريخه، وما اعتقد أنا هذا قطّ، ولا عُشْرَ ذلك.

---

(١١) أي ٩٦ مليون نسمة عدد سكّان بغداد يوم ذاك! يا لِهَوْل المبالغة. وهذه أخبار بعيدة المسافة مِن العقل، لا يؤمن بها، إلاّ مَن غَلَب عليه الجهل.

(١٢) انتهى كلام يَزْدَجِرْد بن مَهْمَنْدار.

(١٣) بَهاء الدولة وضياء الملّة أبو نَصْر فيروز بن شرف الدولة بن عَضُد الدولة البُوَيْهي. تَوَلّى الإمارة ببغداد، بعد وفاة أبيه سنة ٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م. وهو الذي قَبَض على الخليفة الطائع. جَمَع مِن الأموال ما لم يجمعه أحد مِن بني بُوَيْه. توفّي بأَرّجان سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م. وكانت إمارته ٢٤ سنة وأيّام. وحُمِل الى الكوفة، فدُفِن بالمشهد.

واسترسل الخطيب البغدادي في ذِكْر تلك الإحصاءات، فقال[١٤]: يحتاج كلّ انسانٍ مِن هؤلاء في ليلة العيد، الى رِطْل صابون، يكون ذلك: أَلْفَ أَلفٍ وخمسمائة ألف رِطْل صابون - يعني: مَلْيَون رِطْلٍ ونصف مَلْيون رِطْل مِن الصابون - لأولئك الأشخاص الذين تَضمُّهم مساجد بغداد دون سواهم.

هذا مثال واحد، تَتَمَثَّل فيه المبالغة والمجازفة بالأرقام. وهنالك أمثلة كثيرة تَتَطَلَّب الدرس والتمحيص والرجوع بها الى الصواب والمعقول.

(١٤) مقدّمة تاريخ بغداد (ص٧٦ - ٧٧).

المستشفيات

غَصَّت حواضر العالَم الإسلامي، أيّام ازدهارها، بالمستشفيات[١]، وكانت تُسَمَّى يوم ذاك بـِ «المارِسْتانات» أو «البيمارِسْتانات». و «البيمارِسْتان» لفظ فارسي، مُركَّب مِن «بيمار» بمعنى مريض، و «ستان»: محلّ. وحُبِست عليها الأوقاف الدارَّة، ورُتِّب فيها الأطباء المَهَرَة، والصيادلة، والفَرّاشون، وغيرهم. كما جُهِّزَت بالأدوية والأشربة، وبوسائل الرفاهية والراحة والتسلية، لتُخَفِّف عن المرضَى والزَمْنَى - أي المقعدين - آلام أسقامهم.

لقد أثَّرَت تلك المستشفيات، أَثَراً علمياً كبيراً، الى جانب أثرها الخيري. فقد تَقَدَّم عِلْم الطبّ يوم ذاك تقدّماً عظيماً. فنبغ طائفة كبيرة مِن الأطباء، وتَمَهّروا في صناعة الطبّ. وخلّفوا لنا تراثاً علمياً نفيساً واسعاً[٢].

كانت البيمارستانات - أي المستشفيات - يوم ذاك على نوعين رئيسَيْن: الثابتة: وهي المنتشرة في المدن والأمصار. والمحمولة: وتُعْرَف في زماننا هذا بالمستشفيات السيّارة[٣].

وسنذكر شيئاً مِن الأخبار الطريفة بشأن بيمارِسْتانات بغداد:

---

(١) استوفى الشيء الكثير بشأنها: الدكتور أحمد عيسى، في كتابه «تاريخ البيمارستانات في الإسلام».

(٢) «مآثر العرب في ميدان الطبّ وإنشاء المستشفيات»: حديث لميخائيل عوّاد (أذاعه مساء يوم ١٩٥٤/١٢/٢٣، مِن دار الإذاعة العراقية ببغداد).

(٣) «العرب: أوّل مَن أنشأ المستشفيات السيّارة». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلّة «أهل النفط» ٤ [بيروت: أيار ١٩٥٥] ع٤٦، ص١٨ - ١٩).

فقد أنشأ الرشيد، بيمارستاناً ببغداد، ورَشَّحَ لرئاسته الطبيب ماسَوَيْه مِن مشاهير أطباء جُنْدَيْسَابُور. ثمّ أنشأ البرامكة في صدر الدولة العباسية، بيمارستاناً ببغداد، عُرِف باسمهم، وأسندوا رئاسته الى طبيب هنديّ متمهّر في علمه، يُعْرَف بابن دُهَن. وقد نَقَل هذا الرجل، جملة كُتُب مِن الهندية الى العربية، لخبرته بمعرفة اللغتَيْن وآدابها.

ويُنْقَل عن طاهر بن الحسين أمير بغداد يوم ذاك، انّه كَتَب الى ابنه عبد اللّه، يقول له: أُنصُب لمرضَى المسلمين، دُوراً تُوَقّيهم، وقُوّاماً يَرْفِقُون بهم، وأطباءً يعالجون أسقامهم.

وكان العليل إذا جيء به الى المارستان، تُنْزَع ثيابه، ويُؤخذ ما معه مِن مال، وتُوضَع عند أمين المارستان. ثمّ يُلْبَس ثياباً، ويُفْرَش له، ويُعالَج حتّى يَبْرأ. فإذا أَكَلَ فَرُّوجاً ورغيفاً، أُمِرَ بالإنصراف، وأُعْطِي مالُهُ وثيابه.

وكان الخليفة يركب بنفسه في كلّ يوم جمعة، ليتفقّد المارستان والمرضى.

أمّا نظام المعالجة في البيمارستان، فكان على نوعَيْن: أحدهما علاجٌ خارجيّ، أي أنّ المريض يتناول الدواء مِن البيمارستان، ثمّ ينصرف ليتعاطاه في منزله.

والآخر علاج داخليّ. يقيم المريض في أثنائه بالبيمارستان، في القسم الخاصّ والقاعة الخاصَّة بمرضه حتى يُشْفَى.

ففي الطريقة الأولى، كان الطبيب يجلس على دكَّة، ويكتب لمن يَرِد عليه مِن المرضى للعلاج، أوراقاً يعتمدون عليها[٤]، ويأخذون بها مِن البيمارستان: الأَشربة والأدوية التي يصفها الطبيب.

أمّا العلاج الداخلي، أي في داخل البيمارستان. فكان المرضى يُوَزَّعون على القاعات بحسب أمراضهم، وكان لكلّ قسم مِن أقسام البيمارستان طبيبٌ أو اثنان أو ثلاثة أطباء بحسب اتساعه، وكثرة المرضى.

وكانت البيمارستانات مُنْقَسِمَة الى قسمَيْن منفصلَيْن، أحدهما للذكور،

---

(٤) هي المسمّاة في أيامنا بـ «الوَصْفَة» أو «الراجيتة».

والآخر للإناث. وكلّ قسم مجهّز بما يحتاجه مِن أطباء وكَحّالين وجرّاحين وقُوَّام وصيادلة وخَدَم وفرّاشين وعُدّة، ونحو ذلك. وفي كلّ قسم قاعات فسيحة لمختلف الأمراض: قاعة للأمراض الباطنية، وأخرى للجراحة، وثالثة للكحالة - أي أمراض العيون -، وقاعة للتجبير. كما إنّ كلّ قاعة من تلك القاعات، منقسمة الى أقسام فرعية، وهكذا...

ولكلّ بيمارستان خزانة تسمَّى بـ «خزانة الشراب»[٥]. كان فيها من أنواع الأَشْربة والمعاجين والمُرَبَّيات، وأصناف الأدوية والعِطْريّات التي لا توجد إلاّ فيها، وفيها مِن الآلات النفيسة، والآنية، والصِينيّ مِن البَرَاني والأَزْيار ونحوها. ولخزانة الشراب رئيس هو صَيْدَلانيّ البيمارستان.

كما كان لكلّ بيمارستان خزانة كُتُب حافلة بتصانيف الطبّ وغيره من العلوم والمعارف.

وأَنْشَأَ الوزير عليّ بن عيسى بن الجرّاح، بيمارستاناً ببغداد، في محلّة الحربية قرب مقبرة أحمد بن حنبل، وأنفق عليه مِن ماله الشيء الكثير.

قال ثابت بن سِنان بن ثابت بن قُرَّة، وكان بارعاً في الطبّ، عالماً بأصوله، وكان يتولّى تدبير المارستان ببغداد في وقته. وله كتاب التاريخ المشهور: إنّ الوزير عليّ بن عيسى بن الجّراح، المتوفّى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة للهجرة، في أيّام تقلّده الدواوين مِن قِبَل الخليفة المقتدر بالله العبّاسي، وَقَّع الى والده سِنان بن ثابت، في سنةٍ كثرت فيها الأمراض والأَوْبَاء. وكان سِنان يتقلّد البيمارستان ببغداد وغيرها، توقيعاً نُسْخَتُهُ:

«فَكَّرْتُ، مَدَّ الله في عُمْرِك، في أمْرِ مَن في الحُبُوس[٦]، وأنّهم لا يَخْلُون مع كثرة عددهم، وجَفاء أماكنهم، أن تنالَهُم الأمراض، وهم مُعَوّقُون عن التصرّف في منافعهم، ولقاءِ مَن يُشاوِرُونَهُ مِن الأطباء في أمراضهم. فينبغي، أكرمَكَ الله، أن تُفْرِد لهم أطباء يَدْخُلون إليهم في كلّ يوم، ويحملون معهم الأدوية والأَشْربة، وما يحتاجون إليه مِن المُزَوَّرَات[٧]. وتَتَقَدَّم إليهم بأن

---

(٥) هي المعروفة في أيامنا بـ «الصَيْدَلِيّة».

(٦) أي: السجون.

(٧) المُزَوَّرَات: هي التي تُسَمَّى اليوم: شوربة الخُضَر، أي خُضَر بدون لحم أو سَمْن.

يدخلوا سائر الحبوس، ويعالجوا مَن فيها مِن المرضى، ويريحوا عللهم فيما يَصِفونه لهم، إنْ شاء الله تعالى. ففعل سِنان ذلك »[٨].

واشتهر البيمارستان الذي أسَّسَه بَدْرٌ - غلام الخليفة المعتضد بالله -، ببغداد، بمحلّة المُخَرِّم. ومِن طريف ما حكاه سِنان بن ثابت بن قُرَّة، وكانت إليه رئاسة هذا البيمارستان، انّ النفقة عليه نَقُصَت في شتاء سنة من السنين، فبعث يشكو ذلك الى الوزير، ويُعَرِّفه ما لَحِق المرضى مِن الضَرَر بذلك، وقُصُور ما يقام لهم مِن الفَحْم والمؤَن والدثار وغير ذلك عن مقدار حاجتهم. فكتب هذا، الى صاحب بيت المال، انّه لا بدّ مِن تعديل الحال فيه، بل هو أحقّ بالتَقَدُّم على غيره لضَعْف مَن يلجأ إليه، وعظيم النَفْع به، إلى أن قال: وفي هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البَرْد، فاحْتَل بكلّ حيلة لما يُطْلَق لهم ويُعَجَّل، حتّى يدفأ مَن في البيمارستان مِن المرضى، بالدِثار والكُسْوَة والفَحْم، ويُقام لهم القوت، ويُفَصَّل لهم العلاج والخدمة. وأجبني بما يكون منك في ذلك[٩].

وفي سنة ٣٠٦ هـ، أُفْتُتِح بيمارستان السيّدة، ببغداد، وموقعه في سوق يحيى على شاطىء دجلة. افتتحه سِنان بن ثابت، ورَتَّب المتطبّبين، وقَبل المرضى. والسيّدة هذه، واسمها « شغب » هي أمّ الخليفة العبّاسي المقتدر بالله. كانت في غاية الحِشمة والرياسة ونفوذ الكلمة أيّام خلافة ولدها. كانت تنفق بسخاء على البيمارستان، حتّى بلغت النفقة عليه ستمائة دينار في كلّ شهر[١٠].

وأنْشأَ ولدها الخليفة المقتدر بالله، بيمارستاناً، عُرِف بالبيمارستان المقتدري، في محلّة باب الشام بالجانب الغربي مِن بغداد. كان يُنْفِق عليه مِن ماله في كلّ شهر، مائتي دينار[١١].

وعمل في هذين البيمارستانَيْن، جملة مِن مشاهير الأطباء يوم ذاك، وعلى رأسهم سِنان بن ثابت بن قُرَّة[١٢].

---

(٨) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (١:٢٢١).

(٩) عيون الأنباء (١:٢٢١ - ٢٢٢).

(١٠) (١١)(١٢) عيون الأنباء (١:٢٢٢).

وعلى ذِكْر الخليفة المقتدر بالله، فإنّه أوّل مَن نَظَّم صناعة التطبيب وقَيَّدها بنظام خاصّ، حِرصاً على مصلحة الجمهور، فَفَرَض على مَن يريد معاناة التطبيب، تأدية امتحان للحصول على إجازة تخوّله هذا الحقّ بين الناس[١٣].

يقول المؤرّخون في هذا الشأن.. انّ ذلك نتيجة منطقية للخطّة التي وضعها الخلفاء نصب أعينهم، وهي إفاضة النعمة على الرعيّة عامة، حتّى يتمتّع الكلّ بدرجات متقاربة مِن رغد العيش ورفاهية الحياة.

وأَنْشَأَ الوزير ابن الفرات[١٤]، بيمارستاناً ببغداد، بدرب المفضل. كان ينفق عليه مِن ماله في كلّ شهر مائتي دينار[١٥].

ومِن البيمارستانات العامرة التي أُنْشِئَت، في بغداد، بيمارستان الأمير بِجَكْم[١٦]. أَنْشأه فوق رابية جميلة على الشاطىء الغربي لدجلة، كانت تَحْمُلُ قصر هرون الرشيد مِن قَبْل. وظَلَّ هذا البيمارستان زماناً طويلاً حتّى جدّده السلطان عَضُد الدولة البُوَيْهي، وسُمّي باسمه، وافتتحه وزَوَّده بالأطباء والمعاجين والخُزَّان والبَوَّابين والوكلاء والناطورين وغيرهم. ونَقَل إليه مِن الأدوية والأشربة والعقاقير، الشيء الكثير. وجَمَع إليه مِن الأطباء مِن كلّ موضع، فاجتمع فيه أربعة وعشرون طبيباً، بينهم الطبائعي والجرّاح والكَحَّال والمُجَبّر. وبقي البيمارستان العَضُدي هذا، فترة طويلة مِن الزمن ملجأ المرضى والمساكين في بغداد، حيث كانوا يجدون فيه أحسن أساليب العلاج المعروفة يوم ذاك.

ثمّ لَحِقه الإهمال، ودَبّ فيه الخراب بسبب الفتن وسوء التدبير. وبقي سنوات في حال يُرْثَى لها، حتّى جاء الوزير عميد المُلْك[١٧]، في حدود سنة

---

(١٣) عيون الأنباء (١:٢٢٢).

(١٤) أبو الحسن عليّ بن محمد بن موسى بن الفرات. وُزر مراراً للخليفة المقتدر بالله. قُتل سنة ٣١٢ هـ = ٩٢٤م.

(١٥) عيون الأنباء (١:٢٢٤).

(١٦) كان أمير الجيش. اشتهر أمره في أيام الخليفة العباسي المتّقي لله. مات سَنة ٣٣٤ هـ.

(١٧) هو: أبو نَصْر عميد المُلْك محمد بن منصور الكندري. أول وزراء الدولة السلجوقية. مات سنة ٤٥٦ هـ.

خمسمائة للهجرة، وزار البيمارستان، فوجده قد خلا مِن دواء وشراب. وكان المرضى فيه على وجه الأرض. فعمل على إصلاحه وتجديده، فجمع فيه مِن الأَشْرِبة والأدوية والعقاقير التي يعزّ وجودها، شيئاً كثيراً. وأقام الأَسِرَّة والفُرُش واللُحَف للمرضى. وجاء بالأطباء والمستخدمين والفَرَّاشين، وجعل فيه ثمانية وعشرين طبيباً، ونساءً طَبّاخات، وبَوّابين وحُرَّاساً. ونَظَّم حَمَّام البيمارستان، والبستان الى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول والرياحين. والسُفُن في دجلة تنقل الضعفاء والفقراء. والأطباء يَتَناوَبُونَهم بُكْرَةً وعَشِيّة، ويَبيتون عندهم بالنَوْبَة. وجَلَب له الأواني المختلفة، فيها السُكَّر وأنواع المُرَبَّيات، والعقاقير والأدوية والمعاجين. كما جَلَب أشياء أخرى كثيرة، ومنها الثلج.

وفي سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م، حَلَّت نكبة فادحة بهذا البيمارستان. فقد ذَكَر ابن الجوزي، خبر غرق بغداد في هذه السنة غرقها العظيم المشهور في التاريخ. فمِمّا قاله: «...وصعد الماء الى الحريم الطاهري بالجانب الغربي، فوقعت دوره، ودخل الماء الى المارستان وعلا فيه، ورمى عدّة شبابيك مِن شبابيكه الحديد، فكانت السفن تدخل من الشبابيك الى أرض المارستان، ولم يبقَ فيه مَن يقوم بمصلحته إلاّ المشرف على الحوائج. فحكى انّه جمع أقطاعاً مِن الساج، فشَدَّها كالطوف، وتَرَك عليها ما يحتاج مِن الطعام والشراب حتّى الزيت والمقدحة. ورقى المرضى الى السطح، وبَعَث بالمرورين[١٨] الى سقاية الراضي بجامع المنصور،...»[١٩].

وفي سنة ٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م، - أي بعد نحو ثمانين سنة مِن تجديده على يد عميد المُلْك، دَخَل الرحَّالة الشهير (ابن جُبَيْر) بغداد، وكان البيمارستان العضُدي مازال قائماً بأبنيته العظيمة. فزاره هذا الرحّالة، وذَكَر عنه انّه على دجلة، ويَتَفَقَّده الأطباء كلّ يوم، ويطالعون أحوال المرضى فيه، ويرتّبون لهم أخْذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قَوَمَة يتناولون الأدوية والأغذية. وهو قَصْرٌ كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مرافق المساكن.

---

(١٨) المَرْرُور: مَن غَلَبت عليه المِرّة وهاجَت.
(١٩) المنتظم (١٠:٢٤٥).

والماء يدخل إليه مِن دجلة[٢٠].

وتكلَّم المؤرّخون كثيراً على الوزير شمس المُلْك بن نظام المُلْك، ونوّهوا بأعماله الجليلة. فقد بَنَى ببغداد مَكْتباً للأيتام. وقالوا: انّ مِن جملة مبتدعاته في الخير، انّه جَعَل للمعسكر السلطاني بيمارستاناً يَحْمِل آلاته وخيمه وأدويته والأطباء والغلمان والمرضى، مائتا جَمَل.

ولم يَفُت القوم يوم ذاك، اختيار أحسن الأماكن لإنشاء البيمارستانات عليها. فكانوا يختارون المواطن النَزِهة، تحفّ بها الرياض والحدائق، وكذلك الروابي المُطِلَّة على السهول الفسيحة، وأكثر البيمارستانات ببغداد، كانت تَتَوَسَّد شاطىء دجلة. فإنَّ تلك الأماكن جميعها موصوفة بِرِقَّة الهواء، وحُسْن المُسْتَشْرَف.

وفي حكايةٍ، أنَّ أبا بكرٍ محمد بن زكريا الرازي، العالم الطبيب المشهور، حين طُلِب إليه تأسيس البيمارستان ببغداد، أَمَرَ بعض الغلمان أن يُعلِّق في كلّ ناحية مِن جانبَي بغداد، شِقّة لحمٍ، ثمّ اعتبر التي لم يَتَغَيَّر، ولم يَسْهَك فيها اللحم بسرعة، فأشار بأن يُبْنَى في تلك الناحية[٢١].

إنّ الحديث عن البيمارستانات في بغداد، في تلك العصور السالفة، أَمْرٌ يطول شرحه، وما نَوَّهنا به لا يعدو أن يكون لمحة خاطفة مِمَّا تَوَصَّل إليه أهل هذه المدينة العامرة في ميادين الطبّ وإنشاء المستشفيات.

---

(٢٠) رحلة ابن جُبَيْر (ص٢٢٥ طبعة ليدن = ص٢٠١، بيروت ١٩٦٤).
(٢١) عيون الأنباء (١:٣٠٩ - ٣١٠).

شَدّ الأسنان بالذَهَب(*)

عُرِف في بغداد، رجلٌ يُقال له أبو مُسْلِم مُعاذ الهرّاء النحوي. وقيل كنيته أبو عليّ. كان يبيع الثياب الهروية، فنُسِب إليها. كان مِن أعيان النحاة، وعنه أَخَذَ الكسائي النحو[1]. توفّي ببغداد سنة سبع وثمانين ومئة للهجرة. كان يشدّ أسنانه بالذَهَب مِن طول ما عَمَّر. ومات أولاده وأولاد أولاده، وهو باق. وقد عاش مئة وخمسين سنة، حتّى قال فيه الشاعر:

انّ معــــاذ بن مسلم رجـــــل ليس لميقـــات عمره أَمَـــــد
قد شاب رأس الزمان واكتهل الـــدهر وأثواب عمره جـــدد

ووقفنا على خبر رجلٍ بغداديّ، كان عالماً جليلاً. تولّى القضاء في البصرة وأعمالها. وهو الحسن بن عليّ بن شبيب المعروف بالمعمري. توفّي ببغداد سنة خمس وتسعين ومائتين للهجرة. ذُكِر عنه انّه شَدَّ أسنانه بالذهب، وقد عَمَّر، فبلغ اثنتين وثمانين سنة[2].

(*) راجع: «فَضْل العرب على طبّ الأسنان». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلّة «أهل النفط» ٥[بيروت: تموز ١٩٥٦] ع٦٠، ص٤٣).

(١) الكامل في التاريخ (ط.بيروت ١٩٦٥، ٦: ١٨٩، حوادث سنة ١٨٧ هـ).

(٢) المنتظم (٦: ٧٨ - ٧٩).

سِنَّوْر أبي الفَرَج الأصفهاني(*)

يَقَق: اسم سِنّور أبي الفرج الأصفهاني. يَتَصَدَّر السنانير التي اشتهر أمرها في العصور السالفة ببغداد. وقفنا على خبره، فيما ذكره ياقوت الحموي، في عرض كلامه على ترجمة أبي الفرج(١). قال نقلاً عن هلال بن المُحَسِّن الصابىء [في كتاب الوزراء](٢): «وحدّثني جدّي(٣) أيضاً. قال: قصدتُ أنا وأبو عليّ الأنباري(٤)، وأبو العلاء صاعد(٥)، دار أبي الفرج، لقضاء حقّه وتعرّف خبره مِن شيء وجده، وموقعها على دجلة في المكان المتوسّط بين دَرْب سليمان(٦) ودَرْب دجلة، وملاصقة لدار أبي الفتح البريدي. وصعد بعض غلماننا لإيذانه بحضورنا. فَدَقَّ الباب دَقّاً عنيفاً حتّى ضجر مِن الدقّ، وضجرنا مِن الصبر. قال: وكان له سِنَّور أبيض يسمّيه (يققاً)، ومِن رَسْمِهِ إذا قرع الباب قارع، أن يخرج ويصيح، الى أن يتبعه غلام أبي الفرج لفَتْح الباب، أو هو نفسه. فلم نَرَ السِنَّوْر في ذلك اليوم، فأنكرنا الأمر وازددنا

(*) «التَبَصُّر بتجارة السنانير». بقلم: ميخائيل عوّاد. (جريدة «البلاد» بغداد: الخميس ١٩٤٤/٦/٢٩، ع٢٢٦٣، و:الأربعاء ١٩٤٤/٧/٥، ع٢٢٦٨).

(١) عليّ بن الحسين: ت٣٥٦هـ = ٩٦٧م.

(٢) راجع: أقسام ضائعة مِن كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء: لهلال الصابىء، (ص٣٢ - ٣٣).

(٣) هو: أبو اسحاق ابراهيم بن هلال بن زَهْرون الصابىء. صاحب «الرسائل» المشهورة. توفّي ببغداد، سنة ٣٨٤هـ = ٩٩٤م.

(٤) أبو عليّ الحسين بن محمد الأنباري، مِن كُتّاب أبي محمد الحسن بن محمد المهلّبي، وزير مُعِزّ الدولة البويهي.

(٥) هو الإبن الثالث لأبي اسحاق ابراهيم الصابىء. أمّا الولَدان الآخران، فهما: المُحَسِّن، وسِنان.

(٦) منسوب الى سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور. المتوفّى سنة ١٩٩هـ. ويقع قصره في هذا الشارع قبالة رأس الجسر، بالجانب الغربي مِن بغداد.

تشوّقاً الى معرفة الخبر. فلمّا كان بعد أَمَدٍ طويل، صاح صائح أن (نعم)، ثمّ خرج أبو الفرج ويده متلوّثة بما ظَنّناه شيئاً كان يأكله. فقلنا له: عققناك بأن قطعناك عمّا كان أهمّ مِن قصدنا إياك. فقال: لا والله يا سادتي، ما كنتُ على ما تظنّون، وانّما لحق يقفاً - يعني سِنَّوْره - قولنج، فاحتجتُ الى حَقْنه[7]، فأنا مشغول بذلك. فلّما سمعنا قوله ورأينا الفعل في يده، وَرَد علينا أعظم مورد مِن أمره، لتناهيه في القذارة الى ما لا غاية بعده، وقلنا: ما يجوز أن نصعد الى عندكَ فنعوقك عن استتمام ما أنتَ فيه، وانّما جئناك لتعرّف خبرك، وقد بلغنا ما أردناه، وانصرفنا »[8].

فهذا أبو الفرج الأصفهاني، مُصَنِّف كتاب « الأغاني » وغيره مِن التصانيف الجياد، عُرِف عنه، انّه كان وسخاً قذراً، لم يغسل له ثوباً منذ فَصَّله إلى أن قَطَّعه. أَفَلَيْس هذا مِن عجائب المصادفات، وغرائب المتناقضات!!.

---

(٧) هذا أمرٌ يجدر التنويه به، إذْ عُرِف حَقْن الحيوان منذ المئة الرابعة للهجرة، ولعلّه عُرِف قبل ذلك.
(٨) معجم الأدباء (٥:١٥٤).

التَفَنّن في تزوير الخطّ

قال القاضي أبو عليّ المُحَسِّن التنوخي[1]: «حدّثني أبو الحسين بن عيّاش القاضي، قال: رأيتُ صديقاً لي على بعض زواريق الجسر ببغداد، جالساً في يوم ريح شديد، وهو يكتب. فقلتُ: ويحك، في مثل هذا الموضع، ومثل هذا الوقت؟ فقال: أُريد أن أُزَوِّر على رجلٍ مُرْتَعِشٍ، ويدي لا تساعدني، فَتَعَمَّدْتُ الجلوس هاهنا، لتحرّك الزورق بالموج في هذه الريح، فيجيء خطّي مرتعشاً، فيشبه خطّه»[2].

---

(١) (ت: ٣٨٤هـ = ٩٩٤م).

(٢) نشوار المحاضرة (١:٣٦ - ٣٧)، تحقيق مرجليوث، القاهرة ١٩٢١ = ١:٦٣، تحقيق عبّود الشالجي، بيروت ١٩٧١).

مقياس نهر دجلة ببغداد(*)

كان الناس خلال أيّام شهر نيسان مِن سنة ١٩٥٤، لا حديث لهم، غير حديث الفيضان. فقد هَلِعت قلوب العراقيين مِن أقصى الشمال الى أقصى الجنوب، بحَدَث فيضان نهر دجلة، وبات الناس في بغداد، وفي كثيرٍ من المدن والقصبات والضياع المُعَرَّضة لخطر الفيضان، يُوجسون خيفةً مِمّا قد يصيبهم مِن جرّاء غضبه. وقد طَفَت مياهه وخرجت عن حدودها وسدودها، وانفجرت الى السهول والمزارع والبساتين المحيطة بجانبَيْه، بل تَعَدَّت الى كثيرٍ من الأمكنة العامرة المسكونة.

يحدّثنا التاريخ، انّ جملة فيضانات داهمت هذه البلاد في العصور السالفة، وكان دجلة بين زمنٍ وزمن، يداعب بعنفٍ مدينة بغداد.

وأوّل ذِكْرٍ لفيضان نهر دجلة، بعد بناء بغداد، وتدفّق مياهه الى ما يجاورها، وتعدّيها الى كثيرٍ مِن المحال والدُور، كان في سنة عشرين ومائتين للهجرة. ثمّ توالت أحداث الفيضانات وكوارث الغرق مِن بَعْد ذلك التاريخ. فلم تمرّ سنة إلاّ ويَحُلُّ الغَرَق ضيفاً ثقيلاً على بغداد، فيمعن في التخريب والتشريد.

ولن نتناول في بحثنا هذا، أخبار الفياضانات والغَرَق[1] في العصور

(*) «مقاييس الأنهار في العراق ومصر، في العصور السالفة». بقلم: ميخائيل عوّاد: (جريدة «الحارس». بغداد. السبت ١٥ مأيس ١٩٥٤، ع٧٧).

(١) راجع في هذا الشأن:

السالفة، فإنّ ذلك أمرٌ يطول شرحه. ولكنّنا نتحدَّث عن شيء طريف في هذا الشأن، نعني به مقياس نهر دجلة، الذي كان يُعْرَف به مقدار الزيادات والنقصانات في تلك الأزمنة الغابرة. فقد نُصِب هذا المقياس لأول مرّة ببغداد، على جانبيَ دجلة في سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م. كان طوله خمساً وعشرين ذراعاً، على كلّ ذراع علامة مُدَوَّرَة، وعلى كلّ خمس أَذرع علامة مربَّعة كُتِب عليها بجديدة علامة الأَذرع، تُعْرَف بها مبالغ الزيادات[٢].

وقد وصل الماء في أشدّ فيضانه الى حدود اثنتين وعشرين ذراعاً، في يوم الأحد عاشر شهر رمضان سنة ٥٩٦ هـ = ١١٧٤ م. حيث فاض نهر دجلة، فزاد الماء على كلّ زيادة متقدّمة منذ أن بُنِيت بغداد، بذراعٍ وكسر، وتفاقم الأمر، وخرج الناس وضربوا الخِيَم على تلال الصحراء، ونقلوا رحالهم الى دار الخليفة. فغرقت بغداد غرقها العظيم المشهور في التاريخ[٣].

ميخائيل عوّاد: «غَرَق بغداد في العصر العبّاسي»: (مجلّة «أهل النفط» ٣[بيروت: حزيران ١٩٥٤] ع٣٥، ص٤٢ - ٤٣، ٦٩).

د.أحمد سوسة:

(١) «الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي»: (بغداد ١٩٦٢).

(٢) «فيضانات بغداد في التاريخ» (١ - ٣، بغداد ١٩٦٣ - ١٩٦٥).

(٢) المنتظم (٦:٥٧، حوادث سنة ٢٩٣ هـ)؛ النجوم الزاهرة (٣:١٥٨، سنة ٢٩٣ هـ).

(٣) المنتظم (١٠:٢٤٤ - ٢٤٧، سنة ٥٦٩ هـ).

جواهر الخلفاء والأمراء

كانت خزائن الخلفاء والأمراء ببغداد، تزخر بالجواهر النفيسة. وقد اشتهر من بينها عدّة أحجار وفصوص وخرز وقضبان. فمن ذلك: «الفَصّ الياقوت» الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة ألف دينار. و«الدرّة اليتيمة» التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل. والفَصّ المشهور بـِ «ورقة الآس» الذي تَنَقَّل مِن كابر الى كابر، حتّى استقرَّ عند الخليفة العبّاسي المقتدر بالله. سُمّي بذلك لأنّه كان على شَكْل ورقة الآس وبمقدارها. وَزْنه مثقالان إلاّ شعرتَيْن. اشتراه بستّين ألْف درهم.

حَكَى نَصْر الجوهري في كتابه الذي وضعه في الجواهر، انّ مُعِزّ الدولة البُوَيْهي، الذي مَلَكَ بغداد في سنة أربع وثلاثين وثلثمائة للهجرة، أَهْدَى الى أخيه ركن الدولة، مِن الماس فصّاً وَزْنه ثلاثة مثاقيل، ولم يُسْمَع بأعظم منه.

واستقرَّ في خزانة خلفاء بني العبّاس ببغداد، الفصّ المعروف بـِ «العَنْقَاء»، وَزْنه أَحَدٌ وعشرون مثقالاً، وكان فيها «المنقار» بَوَزْن خمسة عشر مثقالاً. وذكروا انّه كان على خِلْقة طائر، مِن ياقوت أحمر، ومنقاره أصفر، وهو الأعجوبة.

وذَكَر نَصْر الجوهري في المنقار، أنّه كان فَصّاً وَزْنه مثقالان إلاّ دانق، وأنّه فاق غيره مِن الفصوص في اللون والماء.

و«لاإسماعيل» أو «الإسماعيليّ» قصّة طريفة. وما «اسماعيلُ» هذا إلاّ

خاتماً كان لابراهيم بن المهدي، وَهَبَهُ للرشيد، وكان مِن زُمُرُّدَة لم يُرَ مثلها. ولمّا استُخْلِف الهادي[١]، ودَخَل عليه الرشيد، ورأى «الإسماعيلي» في يده، فَحَسَدَهُ عليه. وحين خرج مِن عنده أتبعه الفضل[٢] بن الربيع، بأن يبعث «الإسماعيلي» إليه. وقال له: إنْ لم يفعل فجئني برأسه. ولحقه الربيع وأخبره بالقصّة، فقال: والله لا أُعطيه إلاّ بيدي، فَرَجَع معه الى أن بَلَغا الجسر، فأخْرجه مِن أصبعه، وقال: يا فَضْل: أَهُوَ الإسماعيليّ؟. قال: نعم. فَرَمَى به في دجلة. وطلبوهُ فلم يوجد، الى أن استُخْلِف الرشيد، ومضت مِن خلافته سنة، وكان بقَصْر الخُلْد[٣]، فَتَذَكَّر الخاتم، وأمر الفَضْل بالغَوْص لطلبه. فقال: يا سيّدي قد طُلِب مراراً، وانّي لأَظنّ أن قَدْ علاه أكثر مِن أربع أذرع مِن الطين، لتطاول المدّة. ثمّ مَضَى الفَضْل بالغوّاصين. فقال له أحدهم: قِفْ موقف الرشيد، وارمِ بِمَدَرَة[٤] في قَدْر الخاتم كما رَمَى به، ففعل، وأوّل ما غاص الغوّاص في مسقط المدرة، بعد أن قَدَّر ما يميل الماء به الى أن بلغ القَرار، أَخرج الخاتم بعينه كما هو[٥].

وقيل: انّ «الإسماعيليّ» هو «البحر» بعينه. فقد نَقَل البيروني عن نَصْر الجوهري، انّه كان للمنصور فصّ زمرُّد على وزن مثقالين، يُسَمَّى «البحر» تشبيهاً بخضرته. وشراؤه أربعون ألف دينار، وربّما كان هو «اسماعيل» الرشيد الذي قذف به في دجلة.

ولكنّ أَخطر تلك الجواهر وأعلاها قدراً، وأَبْعدها صيتاً، هو الفَصُّ الياقوت الأحمر الذي عُرِف في التاريخ الإسلامي بـِ «الجَبَل» أو «الجَبَلي»[٦]. وله أخبار طريفة. تداولَتْهُ أصابع العظماء مِن خلفاء وملوك

---

(١) موسى الهادي: خلافته: (١٦٩ - ١٧٠ هـ = ٧٨٥ - ٧٨٦ م).

(٢) أبو العبّاس الفضل بن الربيع بن يونس: كان حاجباً للمنصور والمهدي والهادي. ثمّ استوزره الرشيد. واستخلف الأمين، فأقرّه في وزارته. فعمل على مقاومة المأمون. وكان خبيراً بأحوال الخلفاء وآدابهم. مات سنة ٢٠٨ هـ.

(٣) بَناه ببغداد الخليفة المنصور، سنة ١٥٩ هـ. راجع بشأنه: معجم البلدان (٢:٤٥٩ - ٤٦٠).

(٤) المَدَرَة: قطعة مِن المَدَر. والمَدَر: الطين العَلك الذي لا يخالطه رمل.

(٥) الجماهر في معرفة الجواهر (ص٦١ - ٦٢).

(٦) «الجَبَل أو الجَبَلي». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلّة المجمع العلمي العربي ١٨ [دمشق: ت٢ - ك١ ١٩٤٣] ع١ - ٢، ص٥٢٠ - ٥٢٧).

وأمراء وسلاطين، وغيرهم. وتَنَقَّل مِن بلد الى بلد، ومِن خزانة الى خزانة، طوال قرون عديدة.

وقد اختلف الرواة والمؤرِّخون في خبره. ولكنّ أفصح خبر بشأنه، ما جاء به المؤرّخ الشهير المسعودي (ت:٣٤٦هـ = ٩٥٧م) في كلامه على المستعين بالله الخليفة العبّاسي، المقتول في سنة اثنتين وخمسين ومائتين للهجرة. قال: «كان المستعين في سنة ثمان وأربعين ومائتين، أُخْرج مِن خزانة الخلافة، فصّ ياقوت أحمر يُعْرَف بالجَبَلي، وكانت الملوك تصونه. وكان الرشيد اشتراه بأربعين ألف دينار، ونَقَشَ عليه اسمه (أحمد)، وَوَضَعَ ذلك الفصّ في أصبعه. فتحدَّث الناس بذلك. وذُكِر انّ هذا الفصّ تَدَاوَلَتْه الملوك... وقد نُقِش في قديم الزمان، وكان ياقوتاً أحمر يُضيء بالليل كضياء المصباح، إذا وُضع في بيتٍ لا مصباح فيه، أَشْرق، ويُرى فيه بالليل تماثيل تَلُوح»[٧].

واختلف المؤرِّخون في سبب تسميته بالجَبَل. فَذَكر مَن عُني بأحوال الجواهر في الأيام السالفة، أنّ أكثر الجواهر كانت تُلَقَّب بألقابٍ تناسب أشكالها، أو تُنْسَب الى أصحابها، أو تُسَمَّى بأسامٍ للتفاؤل والتَيَمُّن. ولكنّ لَقَب «الجَبَل» يختلف عن هاتيك. وقد أشار البيروني الى انّ «الجَبَل» المشهور، أُشْتُرِي بثلثمائة ألف دينار، وكانت أكياساً لمّا نُضِّدَ بَعْضُها على بَعْضٍ، كالجَبَل.

---

(٧) مروج الذهب (٧:٣٧٦ - ٣٧٧).

مُتَوَلّي الجَوَاز ببغداد(*)

وقفنا على خبر شخص عراقي، تَوَلَّى أَمْر «الأَجْوِزَة» في بغداد. ذكره ابن الساعي (المتوفَّى سنة ٦٠٦ هـ)، في جملة مَن توفّي مِن الأعيان في سنة ٦٠٣ للهجرة (=١٢٠٦ م) قال: «يوسف بن القايني، حاجب السُور، مُتَوَلّي الجَوَاز. توفّي في عاشر المحرّم، وكان مشكوراً»[1].

و«الجَوَاز» في اللغة هو «صَكّ المُسافِر. جَمْعُه أَجْوِزَة[2]. يُقال: خذوا أَجْوِزتكم أي صكوك المسافرين لئلاَّ يتعرّض لكم»[3].

(*) «أجوِزَة السَّفَر في العصور الإسلامية». بقلم: ميخائيل عوّاد:
١ - (مجلّة «الرابطة» ١[بغداد: ١ تموز ١٩٤٤] ع٧، ص١٦٥ - ١٦٨).
٢ - (مجلّة «الكتاب» ١[القاهرة: مايو ١٩٤٦] مج٢، ج٧، ص٤٠ - ٤٣).

(١) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السِيَر (٩:٢٠٧).

(٢) وتُعْرَف اليوم بـ«جَوازات السَّفَر» أو هي ما يسمّونه نقلاً عن الإنكليزية «البَاسْبُورت». ولها دواوين خاصّة بها في الدولة، تنظر في تنظيمها وإصدارها.

(٣) تاج العروس؛ أساس البلاغة (مادة: ج و ز).

أَقْصَر وزير
في الدولة العبّاسية

ذَكَر مِسْكَوَيْه[١]، وابن الطِقْطِقَى[٢]، انّه «لمّا قَبَض الراضي بالله، على عبد الرحمن[٣] بن عيسى، استوزر أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي، وكان قصيراً جدّاً في غاية القِصَر، فاحتاجوا انّهم قطعوا مِن قوائم سرير الخلافة أربع- أصابع مفتوحة، حتّى يتمكّن الكرخي الوزير مِن مشاورة الخليفة. وتَطَيَّرَ الناس مِن ذلك، وقالوا: هذا مؤذن بنقض الدولة، فكان الأمر كما قالوا، واختلفت الأحوال عليه، واضطربت الأمور لديه، فاستتر. قالوا: لمّا أراد الإستتار، قَلَع رأس مُزَمَّلَة[٤] وجَلَس فيها، وأُخْرِجت المزمَّلَة وهو في وسطها. وما زال مُسْتَتِراً حتّى ظَهَر، وصُودِر، ثمّ خلص».

---

(١) تجارب الأمم (٥: ٣٣٨).

(٢) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (ص٣٢٩ - ٣٣٠، طـ. أهلوارد).

(٣) هو أخو عليّ بن عيسى بن داود بن الجرّاح. وُزر للراضي بالله. لم تطل أيّامه، واختلّت الأمور عليه. فاستعفى من الوزارة.

(٤) راجع بشأنها: الحاشية (٥) في البحث الموسوم بـ «تبريد الماء بالثلج» في كتابنا هذا.

ليلة الخلافة

مِن بَيْن الليالي المشتهرة في التاريخ: ليلة الخلافة. قال الثعالبي[1]: «هي ليلة لم يتّفق مثلها قطّ، ويُقال لها ليلة الخلف أيضاً. وكانت ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت مِن شهر ربيع الأول سنة مئة وسبعين[2]. مات فيها خليفة، وَوُلِد خليفة، واستُخْلِف خليفة: مات الهادي، وَوُلِد المأمون، واستُخْلِف الرشيد».

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص٥١٠).
(٢) توافق ١٤ أيلول سنة ٧٨٦م.

محتويات الكتاب

تمهيد ٥
هندسة البناء ٧
أسعار الأراضي ١٣
التبريد الصناعي للبيوت ١٦
تبريد الماء بالثلج ١٩
النجارة وفنون الحفر على الخشب ٢٣
النَحْت على الحَجَر والآجُرّ والجِصّ ٢٦
صناعة الفَخّار والخَزَف والغضار ٢٩
صناعة العُطُور والدُّهُون ٣١
فنون التصوير والتزويق والنَقْش والتدهين والتلوين ونحوها ٣٦
صناعة الحياكة والنَسْج ٣٨
ملابس البغداديين وأزياؤهم ٤٢
العمائم: رُسُوم لبْسها ونَزْعها في دُور الخلفاء
والأمراء والسلاطين وبحضرتهم ٤٧
دَنِّيَّة القاضي في العصر العبّاسي ٥٣
ميزانية بغداد قَبْل أَلْفٍ ومئة سنة ٦٠
صُوَرٌ مِن مستوى المعيشة ٧٠
في بغداد: استُنْبِطَت الكتابة البارزة للعميان ٧٥
المأمون يُثْبت انّ الهواء جِسْم ٧٨
العطلة الأسبوعية ٧٩

الجمعة ببغداد: مِن عجائب الإسلام الأربع ٨٣
صُوَرٌ مِن العيد ٨٤
مجالس الغِناء والموسيقى والمَرَح ٨٧
زِرْياب: المغنّي الشهير والموسيقي البارع: قصّته في بغداد ٩١
معارض الأزهار والأشجار ٩٥
حدائق الحيوان ٩٨
حَمَّامات بغداد في العصر العبّاسي
وما قيل فيها من أقوال ومبالغات.............................. ١٠٥
المستشفيات ١١٠
شَدّ الأسنان بالذهب ١١٧
سِنَّوْر أبي الفَرَج الأصفهاني ١١٨
التفنّن في تزوير الخطّ ١٢٠
مقياس نهر دجلة ببغداد ١٢١
جواهر الخلفاء والأمراء ١٢٣
مُتَوَلّي الجَوَاز ببغداد ١٢٦
أَقْصَر وزيرٍ في الدولة العبّاسية ١٢٧
ليلة الخلافة ١٢٨

تصميم الغلاف : لمياء نعمان نجم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية - ببغداد

(٩٢٧) لسنة ١٩٨١

الجمهورية العراقية

وزارة الثقافة والاعلام
دار الرشيد للنشر
١٩٨١

السعر : ٢٥٠ فلساً

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والإعلان

تصميم : لمياء نعمان

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت